هلال البادي

الدخول مجّاني



هلال البادي

الدخول مجّاني



الدخول مجّاني

هلال البادي



ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-531-2
الطبعة الأولى 2014

القصص حيث وجدت كاتبها

كتبت نصوص هذه المجموعة ما بين عامي 2008 و2013، وفقدت مرتين لأسباب تقنية صرفة، وأعيد كتابة معظم النصوص المفقودة في زمن لاحق من العام 2013.

ومع أن الكاتب الأصلي تبرأ مما كتب؛ إلا أنه أوصاني خيرًا بها، غير ممانع في النشر، شريطة أن نبحث عن كاتب لها، وموصيًا، في كل الأحوال، بحرقها وإتلافها، وذلك عنده أفضل وأكثر صوابًا.

المحرر الفني

إلى هلال البادي:

وحدك تحملت كل عبثي!

«هناك حجاب آخر بين الخط ورسومه في الكتاب، وبين الألفاظ المقولة، لأن رسوم الكتابة لها دلالة خاصة على الألفاظ المقولة، وما لم تعرف تلك الدلالة تعذرت معرفة العبارة»

ابن خلدون

حياة كافية

يقينًا لم يكن يتوقع أن يحدث له هذا الأمر، أن تصدمه سيارة مجنونة في شارع داخلي السرعة فيه حددت بأن لا تتجاوز الستين كيلو مترًا في الساعة.

وبرغم وجود عدة مطبات على طول الطريق إلى منزله الكائن في أطراف العاصمة مسقط، إلا أنه ارتمى عاليًا كطائر ثم سقط على بعد مترين من السيارة المصابة بالهوس والجنون.

تساقط كزجاجة عطر، مع فرق هائل في الرائحة التي انتشرت فجأة، لتعم أرجاء المكان. رائحة دم سطر مكان السقوط المدوي، فيما عدة سيارات توقفت إجباريًا في مشهد فوضوي لم ينقصه إلا صوت الشهقة التي خرجت من إحداهن، كانت تمسك بهاتفها النقال وتعبث بخصلات من شعرها الفاحم وتنظر خلسة من وراء الستارة الناعمة إلى الشارع كأنما تنتظر أحدًا أن يمر هناك.

شهقت هي وسقط هاتفها النقال من يدها التي أصابتها الرعشة فجأة، فتحت عينيها بقوة ولم تدرك أنها حاسرة الرأس عندما فتحت الستارة لترى المشهد بوضوح تام: كان صاحب السيارة التي تهشمت مقدمتها قد توقف خارج الشارع مثيرًا بعض الغبار، وكانت جثة أحدهم تسقط على أسفلت أسود.

دارت بها الدنيا قليلًا وظنت أن ما رأته لا يتعدى مشهدًا في فيلم سينمائي، لكنها بعد وهلة استوعبت الصدمة ومسحت دموعها التي انسربت لا إراديًا من عينيها، مسحت وجهها، وتناولت هاتفها الذي كان يناديها حينذاك، قالت بكل هدوء: أكلمك بعدين.

أغلقت الهاتف.

ليس هناك ما يقال لحظتها سوى أنني أردته أن يموت في قصتي! أردته أن يتوقف عن عمله في الشرطة رغم أنه لم يكمل عامًا واحدًا حتى الآن، لكني لم أشأ له أن يتمادى فيقع ما لا أريده، كأن يعطل صفو لقاء عاشقين وترتسم في عقله صورة الفتاة إياها التي لم تغادر مخيلته مذ أوقفها وهي في سيارة أحدهم تحاول أن تداري فضيحتها بعباءة شفافة فيما هو يمخر عباب

حلم طالما راوده بأن يقل فتاة الجيران إلى شاطئ مظلم يسبح وإياها عاريين!

كان هذا حلمًا لطالما همس به لنفسه كلما كلم بنت الجيران في الهاتف.

قال لها:

ـ بنروح البحر سوا يوم اشتغل وتصير وياي سيارة.

تتضرج هي على الطرف الآخر بحمرة خفيفة محلقة في سماء حلمها بأن تمر شفتها على شفته بهدوء فيما يزداد نبض قلبها تسارعًا ورجفة.

لكنه لم يكن يملك سيارة ولا عملًا وهاتفه الذي يتصل من خلاله ببنت الجيران اشتراه له أخوه الأكبر مدير مدرسة البنين القريبة من منزلهم، ورصيد الهاتف اشترته أخته التي تعمل في المدرسة المجاورة لمدرسة أخيها الأكبر مؤكدة مرارًا وتكرارًا بأنه رصيد لمكالمات العمل!

عامان مرا مذ أنهى دراسة الثانوية بشق النفس مع أنه كان طموحًا بأن يلتحق بالدراسة الجامعية ولكن كما قالت أمه كان حظه سيئًا وبأن أحدهم أصابه بالعين أما أخته فكانت أكثر صراحة عندما أشارت إلى أنه ضيّع وقته في الشوارع مع أولاد السوء!

ولأنه كان أصيب بعين قررت أمه أن تبحث له عن وظيفة في الحكومة مهما كان الثمن، ولم توافق ابنها البكر على مقترحاته المتواصلة في أن يرضى بأي وظيفة أو عمل في إحدى الشركات الخاصة.

ـ تريد الناس تأكل وجهنا؟ ولدنا يشتغل في مكان ما زين؟ لا صارت ولا استوت!

هكذا ردت على بكرها بصرامة واضحة، مؤكدة أن ابنها سيعمل في الحكومة إن عاجلًا أو آجلًا!

في نظرها كان لابد أن يعمل في جهة حكومية تضمن له مستقبله وترفع به جبهته وجبهتها هي أمام جاراتها وأهلها ومن يهمها أن يصله بأن ولدها الأخير تعين في الحكومة أيضًا أسوة بأخوته.

وكان أيضًا أمرًا صعبًا ذلك الوضع الذي وجدت فيه ابنها بلا عمل ترفع به رأسها، حتى مر عامان أصيبت فيهما باليأس والقنوط وإن لم تعلنه على الملأ ولكنه بدأ يتضح بعض الشيء.

وبرغم مكالماتها لمن يملك الواسطة إلا أن ابنها الأخير لم يجد ما حلمت به أمه، حتى في الجيش أو في الشرطة لم تفد وساطات من تعرفهم، ومر العامان وابنها بلا عمل، يقضي وقته في رحلات مع أصدقائه

صباحًا، وفي آخر الليل ينهي رصيده هاتفه في مكالمة بنت الجيران.

من حسن حظي وأنا أكتب قصته أن حدثت تلك الأحداث الثقيلة التي ما عادت البلاد كما كانت قبلها، حدث أن تواجه الشباب وأغلبهم عاطلون عن العمل مع رجالات الشرطة ومكافحة الشغب والجيش، ليقتل أحدهم في صحار، ثم تعلن الحكومة سبعة عشر ألف وظيفة ألفان منها في الشرطة وحدها.

ـ هذي فرصتك يا ولدي، قوم شل وراقك وعسى يشغلوك.

حثته أمه وهي تمني النفس أن يجد عملًا في وزارة من الوزارات إن لم يكن في الديوان، لكن وفي لحظة معينة استجاب هو لنداء خفي يقول له: اتبع صديقك الذي ذهب ليسجل في سلك الشرطة.

ـ ياخي الشرطة أحسن، راتب زين ومهابة.

أغمض هو عينيه لوهلة وتراءى له حلم، بل أحلام جميلة، وتخيل نفسه في تلك البزة ذات اللون المميز، تراءى له شموخه وهو يخطو خارجًا أو داخلًا إلى البيت وهو مرتدٍ ذلك الزي الجميل، تراءى له أكثر شكله وهو يقود سيارة الشرطة وسط الحارة، ثم كيف

يوقف الشباب في الشارع السريع يخالفهم ضد السرعة وضد التجاوزات الخطأ وضد أشياء كثيرة لم يرتبها في ذهنه، شعر بزهو كبير وتنفس بعمق وكأنه سيقفز قفزة تغير حياته تمامًا.

ـ خلاص أنا بسجل في الشرطة، وبيقبلوني هذي المرة.

قال لأمه وأخيه الكبير، وابتسامة تشع على وجهه، تؤكد أنه سيحصل على مراده هذه المرة، وهو ما حصل بعد عدة أسابيع عندما وجد اسمه في الجريدة مطلوبًا من قبل الشرطة.

زغردت أمه ووزعت الحلوى العمانية على بيوت الحي بأسره وقالت لهم بأنها حلوى الفرح، فرح ابنها الذي سيصبح «ضابطًا» في الشرطة.

تدرك هي أن ابنها لن يكون «ضابطًا» يحمل النجوم على كتفيه، ولكنها تريد أن تؤكد للجميع أن أملها لم يخب، وأن إصرارها هو وراء هذا اليوم المشهود الذي تحتفل فيه بقبول ابنها في جهاز الشرطة.

لكنها يقينًا لم تكن تدرك أن هناك لحظة فارقة في حياة ابنها، هي هذه اللحظة التي سعيت لها منذ أول

القصة، وبأن ابنها كان له قدر كتابي، بأن يسقط وسط الشارع مضرجًا بدمائه.

في نظري لم يكن ابنها مناسبًا للعمل في سلك الشرطة، وكانت ضربة حظ عمياء ما أوصله إلى ارتداء ذلك الزي الذي لا يليق بمثله على الإطلاق.

موقفي هذا ليس نابعًا من كراهية ما للشرطة، لا سمح الله، فكثير من أهلي يعملون في سلك الشرطة، وكنت على وشك أن أنخرط في سلك الشرطة، ولكن نداء ما قال لي بأني لا أنفع لعمل كهذا، مع أني أكن احترامًا كبيرًا لرجل الشرطة، وأقدره كل التقدير، وربما هذا هو سبب ما فعلت تجاه هذا الشاب المسكين، الذي رأيت أن ذلك الزي الذي ارتداه فرحًا بأن أصبحت له قيمة وهيبة ومكانة؛ لا يناسبه على الإطلاق، لا سيما بعد تلك الحادثة عندما توقف جوار سيارة عاشقة، ولم يعنه من كل الأمر إلا صورة الفتاة في ذهنه، التي لم تتزحزح إلى اللحظة التي وقع فيها الحادث الأليم.

كانت حاضرة بقوة، وثمة ما يود أن ينطلق بين فخذيه، وينفجر بقوة، كلما رسم صورة الفتاة بعباءة فقط تنزاح عن جسد عارٍ وعامر بالشهوة والحب والافتتان.

ولأن صورة وجهها تلاشت؛ ولم يعد حاضرًا في

خياله، استعاض عنه بوجه بنت الجيران، راسمًا ابتسامة تقول «هيت لك» قد حان وقت تحقيق الأمنية!

وبنت الجيران منذ أن كانت في السادسة عشرة وهي تحلم بلحظة حب دافئة، لحظة تدغدغ فيها أحاسيسها وتشعل فيها جذوة الاشتهاء.

ما لا يعلمه الشرطي المضرج بدمائه الآن أنه طوال العامين اللذين لم يخرج فيهما معها، مكتفيًا بلحظات الحب عبر الهاتف، والكلام الناعم والحراق آخر الليل؛ كانت هي تجد فرصتها في الخروج مع أخواتها ورفيقاتها اللائي كن يحكين قصصهن عن الحب والعشق والغرام ومغامرات آخر الليل وأول الصباح ومنتصف الظهيرة، عندما يمتطين صهوة أحلامهن برفقة مَن خرجن معهم، سواء إلى أماكن لا تثير الريبة ولا يأتيها أحد، أو كما تمادت بعضهن بقضاء ساعات في فنادق نائية وصغيرة بعيدة عن أماكن سكناهن متأكدات أن مشيتهن ودخولهن إلى تلك الأماكن لن يثيرا أحدًا ما دمن غطّين وجوههن بالسواد.

هي، بعد أن نهش الاشتهاء قلبها، وحرّقتها الرغبة، بعد مكالمات الليل الحامية، وبعد أن اكتمل صدرها في تكوره الشهي وتضخم وخصرها باتت العين

لا تمل مفارقته، خصوصًا مع مؤخرة ناعمة ومشدودة لا خيار لأي عين من البقاء ضمن حيزها، بعد كل هذا، ومضي أكثر من عام في مكالمات محمومة آخر الليل، وحكايات أكلت جوفها المشتاق، كانت ألقت برقم هاتفها لشاب أعجبها لون عينيه وذقنه الحليق وصدره المشدود إلى الأمام.

كانت تلك هي أول مرة.

حدث ذلك في رحلة قضتها مع رفيقاتها إلى «سيتي سينما» يشاهدن فيلم عمر وسلمى في جزئه الأول. عندما رأته أيقنت أنها فرصة ولا ينبغي أن تضيعها، ولذا تشاغلت عن زميلاتها بالذهاب إلى دورة المياه، التي لم تدخلها إلا لتكتب رقم هاتفها، ثم خرجت متيقنة أنه ما يزال موجودًا، وهو كذلك، وكان من حسن حظها وقوفه وحيدًا تلك اللحظة عندما مرت إلى جواره وارتطمت ذراعها بخفة مقصودة بذراعه، لتبتسم له، وتغمز بعينها للورقة التي ألقتها على الأرض.

كان بديهيًا أن ينتبه إليها، وأن ينحني ليلتقط الورقة، وعندما رفع رأسه، وجدها تلتفت إليه مجددًا بنظرة ذات مغزى.

في حقيقة الأمر لم يكن وحده من حظي بتلك

الفرصة، إذ بعد أن تعلمت فنون الدخول إلى برامج الدردشة على الإنترنت، في الكلية التي تعرفت من خلال طالباتها إلى عوالم جديدة ومغوية وجديرة بالولوج إليها، كانت دخلت إلى عالم جديد ومثير ومملوء بالمغامرات.

ابن جيرانها المضرج بدمائه الآن على الأسفلت الأسود، بزيه العسكري الخاص، كانت تكتفي منه بمكالمات آخر الليل، وكانت تعده ليكون عباءتها التي ستسترها عقب تخرجها، ولذا كانت تقول له في أحيان مقاطعة حديث المتعة الليلي:

- خاطري أخلص دراستي عشان أدخل بيتك وأكون لك للأبد.

آخر كلمة كانت تعني أنها تريده زوجًا يفعل بها ما يفعل كل زوج بزوجته، لكنها لم تكن متيقنة بأنه يريدها زوجة له، خصوصًا مع صمته الذي يلي تلك الكلمة، وكأنه صمت من يفكر في الخيار المعروض أمامه.

تضحك لتقطع الصمت وتقول:

- بس شرط، أكون في بيت وحدي.

هو لم يكن معنيًا بتلك الفكرة، فكرة الزواج، كان كل تفكيره في ذلك الوقت، منصبًا على رغبة هائلة بأن يصحب إحداهن إلى شاطئ البحر يسبح وإياها عاريين آخر الليل، لا يراهما أحد وهما يمارسان طقوس عشق جارف كموج البحر!

لم يتسن له أن يفعل كل هذا الأمر، فبعد أن كبرت الفكرة في رأسه، جاءت الأحداث متسارعة لتلقي به في أكاديمية الشرطة أشهرًا من الانضباط وتناسي كل الأحلام التي أوشكت على التحقق.

بعد مباشرة العمل اكتشف مميزات عديدة في عمله شرطي مرور، إذ لا تتاح لأي كان أن يوقف سيارة تقودها امرأة جميلة مثلًا، أو كما حدث معه عندما وجد سيارة تقل موعدًا غراميًا في مكان متوار لا يعرفه إلا العشاق فحسب.

يومها ولحسن حظه أن زميله الذي يرافقه في السيارة ويعلوه رتبة، طلب إليه أن ينزله لدقائق بجوار بناية.

ـ انته روح شوية وتعال لي بعد ساعة.

تلك البناية أثارت مخيلته أيضًا، وخصوصًا أن زميله لم يوضح أي سبب للتوقف هناك، ودخول تلك

البناية! لابد أنه واعد إحدى الساكنات هناك، في تلك البناية التي لن يسكنها سوى العزاب والمغتربات.

لكنه لم يستفد شيئًا سوى تهيجه أكثر فأكثر، وظلت الصورة، صورة الفتاة بالعباءة السوداء المنزلقة على جسدها العاري، تداهم خياله كل لحظة وأخرى.

وطد عزمه أن يجد فتاة يحقق من خلالها حلمه، لتكن بنت الجيران، فهي لن تماطله كثيرًا في أن تخرج معه وتحقق رغبته في الذهاب إلى الشاطئ المظلم.

وبنت الجيران كانت فعلت ما هو أكثر من مجرد الخروج مع من تعده زوجًا مستقبليًا، إذ مذ حادثة السيتي سينما، كانت خرجت مع عشاق كثر، ليس من بينهم شاب السيتي سينما.

هي لا تكذب على صديقاتها عندما تخبرهن أنها عاشت اللحظات اللذيذة، وبأنها واعدت شبابًا تعرفت إليهم عبر الإنترنت وجاءت بهم إلى مسقط حيث حجزوا لها غرفًا جميلة في فنادق لا يدخلها أحد.

كانت تعرف كيف تجعلهم يقومون بكل ذلك، عندما تعرض لهم ساقها وفخذها الأبيض اللدن، أو جزءًا من صدرها المتوهج بالغواية، في ثوان قليلة تغلق

بعدها كاميرا الدردشة، وتكتب جملة واحدة: تريد أكثر لازم تدفع!

كثير منهم قد وصلوا آخر مطافهم إلى تلك اللقطات، ولذا لا يجارونها في طلباتها، ليفقدوها بعد حين عندما تقوم بحظرهم من برنامج الدردشة، لكنها تحسن انتقاء من يمكن له أن ينفذ إلى رغباتها ويقوم بالمهمة الكبيرة.

لكن لأكون منصفًا هي لم تفرط في عذريتها تحت أي ضغط، حتى عندما كانت تتلوى من اللذة لأن أحدهم استطاع أن يهيجها، كانت تركت ذلك الغشاء لليلة يباركها فيه جميع من تعرف، وفعليًا كان الشرطي ابن الجيران هو الأكثر مناسبة الآن بعدما باتت له صورة مهيبة في حيّهم.

وها هو ابن الجيران الآن هناك مسجى، به نبض ضعيف، ولا يمده بحياة كافية كي يحقق لها حلمها، أو يحقق حلمه أيضًا.

كيف؟ لأن؟

كان السؤال الذي يشغل بال الكاتب هذه المرة هو: كيف يمكن له أن يبدأ القصة وليس في ذهنه أي قصة؟

حسن،

علينا أن نعترف بأن هذا الكاتب هو أيضًا كائن ككل الكائنات، له طاقة معينة، وليس سوبر مان قادرًا على التحليق عاليًا، وابتكار كل الحلول الممكنة لإنقاذ حبيبته من أيدي الأشرار والطغاة والمجرمين! إنه مثل أولئك البائسين الذين أوجدهم في قصصه: يعانون الضياع، من الإحباط، من عدم المقدرة على مجابهة العالم الأسود الذي وضعوا فيه أو بالأحرى الذي وضعهم هو فيه!

وهو في النهاية إنسان من لحم ودم، ينام الليل أحيانًا، ويشرب الماء ويأكل الطعام ويمشي في الأسواق ككل العالم، وكما هو الآن متوجه إلى البحر

مكانه الأثير حيث سيمشي بمحاذاة بشر مثله، وربما يتقاطعون معه في بعض الجزئيات من حيث وجود أزمة تواجههم ولا يستطيعون لها حلًا، ولذا هم يمشون على الشاطئ قرب الموج الهادئ يتفكرون في الحلول الممكنة!

ولأنه كذلك، فهو الآن قلق ومصاب بأشد درجات الإحباط والكآبة، لأنه غير قادر على أن يكتب، غير قادر على أن يستحضر بطلًا جديدًا من أبطاله المهزومين المنكوبين في نصوصه، وليس بقادر على أن يجد حبيبة جديدة يخطفها قدرها الكتابي إلى قمة برج ليس به سلالم.

وهو، أيضًا، لا يستطيع أن يفعل ذلك لأن زوجته ستعلم حتمًا بما حدث، وهي بالمناسبة زوجة جميلة وقارئة جيدة، وباستطاعتها أن تسمع في أوراقه صوت أي امرأة يكون كتب عنها وأن تشم رائحتها عن بعد، ولا يمكن له في تلك اللحظة أن يدعي أن الناس والأقدار من حوله فرقا بينهما.

ساعتئذ ستقول له بكل هدوء: أيها الكاذب، تقول تحبني وفي النهاية تكتب عن حبيبة أخرى غيري؟

وبرغم أنه يحب زوجته، ويجد فيها الصديقة التي

دائمًا يحاورها ويتحدث إليها، إلا أنه حتى هذه اللحظة لم يستطع أن يتحدث معها عن النساء اللائي لم يستطع أن يلتقي بهن الأبطال في القصص، الذين يتشاركون في كثير من الصفات مع الكاتب لحظة الكتابة، وكأنه يكتب تاريخًا سريًا خاصًا به.

ولربما لذلك أيضًا لم يعد بإمكانه أن يكتب الآن عن أبطال مهمشين لأنه لم يعد مهمشًا، ولأن كثيرًا من مشاكله أصبحت محلولة، فهو الآن متزوج وأب لثلاثة أطفال، ولديه منزل واسع ذو شرفة جميلة أصرت الزوجة أن تحفها بالورود والزهور الجميلة، وكان دومًا يحلم بتلك الشرفة كي ينظر إلى النجوم في الليالي التي يغيب فيها القمر.

صحيح أن منزله هذا لم يقم هو بنفسه بتصميمه وفق ما كان يحلم، واشتراه بمبلغ طائل بعدما قرر أن يستدين من البنك ويأخذ قرضًا إسكانيًا ضخمًا بات يأخذ ثلثًا من راتبه لمدة عشرين عامًا مضى منها الآن أقل من أربع سنين.

ولكنه مرتاح..

ولديه أيضًا سيارة جديدة ذات دفع رباعي، اقتناها

قبل أشهر من بدء أزمته مع الكتابة، وكان دائمًا يحلم بتلك السيارة، مارًا بمحاذاة وكالة البيع كل أربعاء متأملًا شكلها البديع، وبرغم أنه اشتراها أيضًا بالتقسيط إلا أنه مرتاح لاقتنائها.

وليس ذلك فحسب، إذ لديه حاسب آلي محمول يكتب من خلاله كل مقالاته الأسبوعية للجريدة التي تدفع له مبلغًا محترمًا كي يطل من خلالها على القراء الذين يحبونه ويحبون قصصه.

هم يحبونه في كل كتاباته كما أرسل له أحدهم ذات يوم عبر بريده الإلكتروني قائلًا: أنا لا أشتري الجريدة إلا يوم الأحد، حيث إن هذا اليوم يكون استثنائيًا عندما أقرأ مقالك الرائع.

ذلك الكلام كان مبعث سعادته، وشعوره بأنه خفيف وبأنه طائر في سماء بعيدة، مع أنه في أعماقه كان يتمنى لو أن من كتب هذه الجملة الجميلة معجبة، مستغربًا حاله إذ لم تكتب له أي معجبة إلا مرة واحدة فقط، فكاد يومئذ يطير من الفرح، عندما كان يفتح بريده الإلكتروني.

وهي الوحيدة التي اهتم بالرد على رسالتها، حيث أرسل إليها ردًا منمقًا:

أشكر لك هذا اللطف الجم، وأتمنى دائمًا أن أكون محل ثقتك وكلماتي تعبر عنك وعن الهموم التي تراودك في الصباح وفي المساء، ويسعدني في كل الأحوال أن أتلقى ملاحظاتك القيمة، فهي مصابيح الضوء في طريق كتاباتي، مثلك تمامًا، تنيرين بريدي بكلماتك العذبة هذه...

وبرغم أن الجملة الأخيرة كانت دعوة غير مباشرة لتواصل «العلاقة» وتعمقها؛ إلا أن المعجبة كانت متزنة إلى حد بعيد، حيث دائمًا تبدأ رسائلها بجملة «أستاذي العزيز».

ولكنه كان كاتبًا مثابرًا، وهي الصفة التي يعتقد بأنها سبب استمراره في الكتابة حتى الآن، فكان دائمًا يراسلها، وربما أرسل في اليوم الواحد أكثر من خمس رسائل في وقت متقارب جدًا.

ولأنه أستاذ كبير حسب قولها في بعض رسائلها، فإنها أجابت دعوته مرة لحضور أمسية أدبية أقيمت من أجله وذلك ضمن مهرجان إبداعي كبير.

يومئذ تهاوت أحلامه في إيجاد علاقة سرية مع معجبة، إذ عقب انتهاء الأمسية تقدمت امرأة ممتلئة

وقصيرة وليست جميلة تمامًا، كانت تبتسم له وتحمل نسخة من أحد كتبه، مادة يدها بالنسخة إليه: أستاذ وقع لي...

وعندما نظر إليها أحس بحرج أمام نفسه، فهو أيضًا لم يحدث أن وقع لفتاة جميلة كما يحلم، فيما قدره أرسل إليه مرات كثيرة معجبة ليست بالقياس الذي يريده، ولكنه مضطرًا أمام الناس أخذ الكتاب:

ـ اسمك؟

ـ وقعه باسم «زنبقة بيضاء».

لحظتئذ رفع عينيه إليها، فابتسمت أكثر، وعقد حاجبيه منزعجًا حتى بدا على وجهه بعض من انزعاجه الداخلي، داراه بمحاولة ابتسامة مرتبكة:

ـ أنت؟!

ـ أنت سريع البديهة يا أستاذ!

كانت هي معجبته السرية، التي أثارت تقززا كبيرًا في أعماقه، فزوجته أجمل منها ألف مرة، ولم تكن قصيرة أو ممتلئة كالتي تقف أمامه لحظتئذ مبتسمة بفرح للقائه.

لعنها تلك اللحظة التي قام فيها بالرد على

رسالتها البريدية الأولى، وتمنى لو أن الوقت كان يمر بسرعة، بسرعة ضوء برق فينتهي ذلك الموقف الواقع تلك اللحظة فيه.

أعطاها الكتاب وعلى وجهه تلك الابتسامة الصفراء، بالأحرى تلك النصف ابتسامة التي وضعها على وجهه ككل الابتسامات الباهتة التي يضعها على وجوه أبطاله المهزومين، في لحظة سخرية من حياتهم الوضيعة.

لم يتفاعل معها، بل كمن وجد المنقذ، استجاب بسرعة لنداء أحد أصدقائه، ففر من أمامها كفأر أجرب، ولم يرد على أي من رسائلها الجديدة التي كانت ترسلها عبر البريد الإلكتروني.

ها هو الآن يتذكر هذه الحادثة، وتلمع في ذهنه فكرة أن يجعلها قصة جديدة له، لكنه يتراجع فزوجته ستكتشف أن الحادثة حقيقية، ولم تقع إلا له هو، وأنه هذه المرة بطل حقيقي.

إن زوجته ذكية، وفطنة، وقارئة مميزة، وبرغم أنها ككل النساء تنسى الفطنة والذكاء عندما يتعلق الأمر برجلها وبغيرتها عليه، فتبدي له الملاحظات الواحدة تلو الأخرى عندما يتعلق الأمر بالكتابة عن حبيبة ما،

مختلقة؛ إلا أن الأمر هذه المرة يختلف جذريًا، إذ إنها ستكتشف الفرق بين كل الحبيبات اللائي كتب عنهن وهذه الأخيرة، ستكتشف أنها حبيبة من لحم ودم، وليست حبرًا على ورق.

كيف سيكون الوضع ساعتئذ؟ لا يريد أن يتكهن ولا أن يجرب، فهو يكفيه ما يجنيه من وراء مخلوقات الورق الجميلات، فكيف به لو أن القصة كتبت واكتشفت أنها ليست كالأخريات؟ اكتشفت أن من كتب عنها واحدة حقيقية، وليس ذلك فحسب؛ بل تكتشف أن زوجها الكاتب الموقر هو صاحب التجربة لا أحد غيره؟

هز رأسه وشتت الفكرة في الهواء، وها هو يمضي في الطريق بمحاذاة البحر يفكر في قصة مناسبة.

المشكلة أن كل الأبطال المحزونين لم يعد لهم وجود الآن، فذاته لم تعد متشظية، ومصابة بالوجع، وحتى الأشخاص من حوله الذين استلهم من بعضهم قصصًا رائعة وحكايات مؤثرة لم يعودوا يثيرون أي شرار كي يستلهم منهم الحكايات والقصص، فالذي كان عاطلًا عن العمل وعاشقًا متيمًا لفتاة ليست على قياس ثوبه، أصبح اليوم واحدًا من التجار في جيبه ألف

عشيقة، ومعشوقته الوحيدة تعد له العشاء في عش الزوجية بعدما تخطت كل الذين جاؤوا لخطبتها، والعامل الهندي الذي جاء البلاد مغتربًا عن أهله، عاد إلى قريته الوادعة شمال الهند وأسس مع صديق له شركة نقل صغيرة تكفيهما شر الغربة والابتعاد عن حياتهما الوادعة، ولم يعد كلاهما بائسًا، وأما الذين ضاعت أوطانهم، فهم لم يعودوا يثيرون تعاطفه بعد الأحداث المؤسفة التي أوصلت بلدانهم إلى احتراق أضخم بكثير من الاحتلال، وأما أصدقاؤه المثقفون فهم دائمًا لا يمكن أن يكونوا أبطالًا لقصصه، إذ لا يبالون إلا بحاناتهم فقط، ولا يعيرون الناس حولهم أي اهتمام، والكاتب الجيد هو من ينطلق من هموم الناس المحيطين به.

هكذا كان يفكر، وهو يشاهد الناس وهم يمشون ويركضون ويلعبون في الشاطئ، فرحين بالجو الشتائي الجميل. كان لحظتئذ قد وصل إلى المقهى الذي تعود من خلاله أن يتأمل البحر ويراقب غروب الشمس.

أخذ كرسيًا وجلس.

تذكر ذلك النادل الذي سأله مرة: لماذا الكتاب يكتبون دائمًا عن الأحزان؟ الدنيا فيها أفراح كثيرة،

لماذا لا يكتبون عنها؟! يا أخي أنتم كتاب، اكتبوا عن الفرح أيضًا، الحياة جميلة والجمال يستحق أن يشار إليه.

نظر إليه مستغربًا: أيعقل أن يكون النادل بهذا الفهم الجميل؟ ولديه معرفة مميزة عن الحياة؟

كان النادل يعمل ويدرس في وقت واحد: يدرس في مجال علم النفس من خلال الإنترنت، ولديه طموح أن يحصل على الشهادة ويسافر بعدها إلى أوروبا حيث يجد فرصة حياة أكثر اتساعًا، ووجد هذه الفرصة قبل أن تنتهي دراسته، وكل ذلك عبر جولاته في الإنترنت. هكذا أخبره في الأيام الأخيرة قبل أن يسافر إلى أوروبا، حيث سيعمل في قناة تلفزيونية، وربما أصبح مذيعًا هناك، بدل الوظيفة التي حصل عليها.

لقد كان النادل أكثر واقعية من أبطاله جميعًا، بل منه هو ذاته، ولطالما تمنى لو أن الحوار طال بينهما حتى يتعرف إليه أكثر، لربما جعله بطلًا في إحدى قصصه.

كان يتأمل البحر، والناس، والنوارس، والغروب، وكنت لا أستطيع أن أجد لقصته هذه أي

نهاية، فحتى هاتف زوجته كان مقطوعًا يومئذ، كي يظل هو معلقًا في ذلك التأمل والتفكر في نص يكتبه، فيما الشمس تنزل ببطء إلى البحر، والناس يتقلصون، ولمسة هدوء تعم البحر الكبير.

هروب

حدث كل شيء بسرعة.

كان الكاتب غارقًا في أفكاره مغمضًا عينيه وأصابع يده تعبث بقلم الحبر السائل ذي اللون الأسود، كان متوترًا أمام تلك الأوراق البيض كأنما يستعد لفعل خاطئ، وكانت الأوراق خالية إلا من بضع كلمات دونها شاطبًا بعضها فيما الغالب منها لم يتضح شكله!

كان يستعد لكتابة نصه الجديد عندما تراءى له أن كائنًا ما يخرج من ورقه الأبيض قافزًا بسرعة محدثًا ضجة مفاجئة مصطدمًا بكثير مما كان أمامه مثيرًا زوبعة أوراق تناثرت فجأة في فضاء المكان!

لوهلة لم يستوعب ما حدث، وظن أن نظارته القديمة بدأت تتهاوى تحت عامل الزمن وبأن المروحة دارت فجأة فأحدثت تلك الزوبعة التي أحدثت شيئًا من التداخل في وعي الكاتب ولا وعيه، إلى درجة أنه بدأ

يرى كائنات وهمية تخرج من أوراقه المتناثرة في الفضاء.

كانت المروحة مطفأة هي وجهاز التكييف الذي يمقته صيفًا وشتاء، والكائن كان حقيقة مؤلمة للكاتب تكشف وقعها أكثر ربما بعد أقل من خمس ثوان كانت كفيلة باستيعاب الأمر.

مؤلمة لسبب وجيه: رأى بعد تلك الثواني الخمس شخصًا يقف عند باب مكتبه مبتسمًا بسخرية واضحة، ابتسامة طالما تمنى كتابتها ولم يفلح إذ كل شخوصه اتسمت بالأحزان المتواصلة التي لم تجعلها تبدو شخصيات سوية قادرة على مجابهة مثل هذه الحياة.

أخيرًا خرجت تلك الابتسامة وكانت أفضل مما لو كتبها على الورق. وفيما كانت الابتسامة تشع؛ كانت نظرة مصدوم بواقعة لم يحسب لها حساب هي ما يسيطر على الكاتب، على مساحة وجهه غير الحليق، كانت نظرة شخص اعتقد دهرًا أن كل شيء قد يمشي وفق مزاجه هو حتى هذه اللحظة التي شُلَّ فيها إدراكه وبدت حواسه معطوبة إلى حد ما.

لكن الثواني الخمس انتهت والذهول تبدد ليقطب

حاجبيه ويبدأ بالتحرك المباشر حتى وإن كان بلا وعي أو تخطيط سابق.

كانت ردة الفعل الاعتيادية التي تصيب الكثيرين عندما يرون أحدهم يبدأ بإحداث الفوضى والتدمير، كما فعل الكائن الخارج من ورق هذا الكاتب عندما أثار زوبعة أوراق تناثرت في الفضاء ثم تهاوت في مساحة الغرفة الصغيرة التي أعدها الكاتب مكتبًا خاصًا له يختلي فيه من أجل مشاريع الكتابة والقراءة والابتعاد عن ضوضاء أبنائه الثلاثة، تلك الضوضاء المزعجة التي لطالما تشاجر بسببها مع زوجته (بالمناسبة زوجته هذه تبدو بغيضة عندما يتعلق الأمر بالأدب والكتابة والقراءة، هي لا تؤمن على الإطلاق إلا بمجلات الموضة مثلها في ذلك مثل كثير من النساء، وكلما تذكر أنه ارتبط بامرأة مثلها ارتسمت على وجهه صورة إنسان بائس عليه أن يكيف ذاته في العيش مع الوحدة المقيتة).

ولولا أنها جميلة ومثيرة يوم تعرف إليها وهو يوقع مجموعته القصصية الأولى، ولولا قولها له بأن الحزن لا يليق بشخص مهم مثله، ولولا ما تلا ذلك اليوم من مكالمات الإعجاب المتبادل والتشارك في نثر الأحزان المتباينة مما أوحى له، أو هكذا يوهم نفسه

اليوم بعد سنوات من الزواج، بأنها قد تتفهم طبيعته وتتفهم وضعه وتتقاسم معه بعض الأفكار وبينهما قواسم مشتركة.

لكن ذلك غير حقيقي، وكان تجلى كل شيء في أول شجار دار بينهما حينما عيرته بالفرن، الذي اشتراه أبوها هدية لها بعد ثلاثة أشهر من الزواج، وبأنه لم يمنحها شيئًا من أحلامها الرومنسية التي كانت تحلم به، لا رحلة شهر عسل كما بقية المتزوجين حديثًا بحجة ضيق ذات اليد وبأنه أنفق كل ما اقترضه من مهرها وتأثيث شقتهما الصغيرة وعدم وجود إجازة من عمله كافية للقيام بمثل هذي الرحلة، ولا غرفة نوم كما كانت تحلم حينما اقترض من البنك ذلك المبلغ الضخم كي يشتري هذا البيت الصغير الواقع في آخر الدنيا كما كانت وما زالت تصفه، غرفة نوم تجعل لياليها معه مشوقة ومملوءة بالدفء والأحاسيس الجميلة.

يصل الخلاف إلى أوجه عند هذه النقطة ثم ينتهي كل شيء دفعة واحدة وبلا مقدمات على سريرهما ليتهامسا بالحب الجارف وتبدل حالهما على نحو غريب.

لولا هذه النقطة لربما انتهى هذا الزواج، لكنه

يدرك في أعماقه أن هذه الغرابة التي يعيشها مع زوجته ما هي إلا مسكن لحالة التناقض الكبير بينهما.

مع ذلك كانت حركته بطيئة مقارنة بتحرك الكائن/ الشخصية الهاربة، الذي في لحظة عدوه كان يضحك بصوت خافت وساخر أزعج الكاتب بلا ريب، وكان وصل إلى المدخل حيث الباب كان مشرعًا لضوء الشمس والهواء.

كانت الشخصية تصدر تلك الضحكات المكتومة مدركة على ما يبدو أنها تزعج هذا الكاتب، ولذا لا غرابة على الإطلاق أن تقوم الشخصية بفعل مباغت ولكنه مدروس من قبلها، ألا وهو إسقاط تلك اللوحة ذات الامتداد الأزرق في عمقها، اللوحة التي تمثل قيمة كبيرة لدى الكاتب، حيث يرى أنها المسكن لعذاباته الكثيرة، لأرقه المتواصل والتشظي الذي وصل إليه ولا سيما بعد الزواج.

يبدو أن الشخصية أيقنت بحدس ما أن هناك علاقة تربط الكاتب بتلك اللوحة، علاقة عميقة إلى الدرجة التي ستجعله يهتم بها أكثر من اهتمامه بحادثة الهروب وبمطاردة هذه الشخصية الفارة من قدرها الكتابي. لذلك تعمدت الشخصية إسقاطها على الأرضية

ليزيد الكاتب من سرعته وهو يقول بصوت واضح أن انتبه!

لكن الشخصية الهاربة ضحكت، وها هي خارج المنزل تنظر إلى الكاتب الذي هرول للوحته الزرقاء يتأكد من عدم تأثرها بأي سوء.

كانت اللوحة على الأرض وبجوارها الكاتب وضحكة خافتة كصوت عصفور كانت تتردد على بعد أمتار قليلة منه، لكنها تلاشت في الفضاء الخارجي الحر، وعندما خرج الكاتب عند مدخل البيت لم يكن هناك من أحد.

لقد اختفت الشخصية الآن تاركة كل الأدلة على أنها حقيقية وليست هلاوس تصيب عقل الكاتب جراء القراءة والكتابة المتواصلتين.

والآن صحيح أن لوحته الزرقاء سليمة وبخير، وليس عليه سوى أن يعيدها إلى مكانها السابق حيث تزين مدخل منزله من الداخل كي يراها كل من يدخل هناك (تحايل على صديقه الفنان بأن يشتريها بمبلغ زهيد. حدث ذلك قبل قرابة العامين عندما افتتح صديقه الفنان هذا معرضه الشخصي الأول، وكانت هذه اللوحة الزرقاء من ضمن اللوحات التي عرضها الفنان في

معرضه، وبرغم أنها ليست أفضل اللوحات أو أجملها إلا أن الكاتب وقع في غرامها منذ الوهلة الأولى، ثم شرع يشرح لصديقه تلك العلاقة الغامضة التي نشأت بينهما، لكأنما كانت فتاة جميلة قدر له أن يصاب بعشقها! وبأن القدر أرسلها إليه كي تنقذه من بؤسه الهائل الذي يعيش فيه!

لوهلة لم يستوعب الفنان كلام صديقه، لكنه بعد هنيهة استطاع أن يتخلص من بلاهة وجهه ويطلق ضحكة مجلجلة:

ـ تعشق لوحة من زيت؟ ويقولون: الفنانون مصابون بالجنون! أنت بلا عقل يا صديقي!

لكن الكاتب أسكت ضحكة صاحبه وسخريته عندما أمسكه من ذراعيه بقوة وهو يقول: هذي اللوحة لي هل تفهم؟! أنت رسمتها لي، هناك روحي وكل مشاعري! أنت فنان كبير إذ استطعت أن تجعلني حاضرًا في بعض أعمالك!

كان جادًا في كلامه حتى أن صاحبه لم يعلق أو يقل شيئًا لبرهة، فيما ظل الكاتب ينظر إليه بابتسامة طفل وجد لعبته المفضلة أخيرًا.

ـ اسمع يا صديقي، كل هذه اللوحات بيعت لرجل

مهم يحب اقتناء اللوحات الفنية، إنه مسؤول كبير وله ثقله في البلاد، فكيف تريدني أن أنقص لوحة واحدة من هذا المعرض؟ أنت تورطني جدًا لو أني أنصت لك، ثم إن سعرها مرتفع جدًا وأنت لا تقدر عليه.

قال له صديقه الفنان ثم صمت.

كان ينتظر أن ينكس الكاتب رأسه مصابًا باليأس، لكن الكاتب ظل مبتسمًا ابتسامته الطفولية تلك، وكأنما لم يسمع شيئًا.

كانت ابتسامته صخرة تكسر عندها تعنت الفنان، فأدرك أن كذبة المسؤول الذي اشترى اللوحات لن تنطلي على صاحبه.

ـ طيب، ستأخذها شرط أن تدفع ثمنها كاملًا.

ـ المبلغ جاهز.

كان يوم فرح للكاتب تناسى معه مشكلة عدم شراء الثلاجة التي كان ينبغي له أن يشتريها كما وعد زوجته، وكان عليه أن يتحمل غضبها والشجار الذي سيجر إليه، والذي مهما كبر لابد أن ينتهي إلى السرير كالعادة وينتهي كل شيء كما بدأ).

أعادها إلى مكانها لكنه أدرك عمق المشكلة التي

هو مقبل عليها: الشخصية الهاربة الآن والتي من الممكن أن تحدث بعض الفوضى في البلاد، ماذا يمكن أن يحدث جراء هروب شخصيته التي بكل تأكيد لا تدرك من حياتها شيئًا سوى هروبها؟ بالتأكيد لا شيء، فهي لا تعرف شيئًا من حياتها، ولا تعرف ماذا تفعل، ولا إلى أين ستمضي، لربما عادت إلى البيت، لربما رآها أحدهم تائهة وقرر مساعدتها ثم أوصلها إلى المكان ذاته الذي خرجت منه، أو إلى أقرب مركز للشرطة حيث سيتكفلون بالبحث عن أهله!

لكن ماذا لو أن الشرطة استدلت، بعد زمن قضته في سؤال الشخصية والتحقيق معها، وبعد جهد جهيد بذله أكبر ضابط بالمركز، إلى بيت المؤلف؟ ألن يقع هو في موقف محرج؟ ألن يثير وجود سيارات الشرطة جوار بيته الأقاويل والشبهات؟ ويبدأ سكان الحي بالتساؤل عن هذا الكاتب الذي لم يخالط جيرانه مطلقا، وظل متنائيًا كجزيرة في وسط المحيط، لا يعرف عنه أحد أي شيء سوى أنه كاتب يظهر الشرطة جوار بيته، سيصبح علكة في أفواههم وستطلق حوله كثير من الحكايات التي لم يكتبها، كأن يتهم بانتمائه إلى تنظيم سري يهدف إلى إسقاط الحكومة، أو أن تطلق حكاية عن فتاة لم تبلغ الحادية والعشرين أغواها

حتى بانت غوايتها في بطنها المنتفخ، أو يكون جعل من بيته ماخورًا لمدمني المخدرات، وتلك أضعف الحكايات وأقلها نصيبًا في الانتشار بين أهالي الحي الذي يسكن فيه الكاتب؟

كل هذا يمكن أن يحدث، بل أكثر من ذلك، كأن يصل الأمر إلى اتهامه بتعذيب إنسان في بيته ومنعه من التمتع بحياته الحقيقية إلى الدرجة التي جعلت ذلك الإنسان يصاب بالجنون والعته!

ساعتئذ لن تبدو حياته الهادئة المنعزلة ولا سمعته القائمة على النقاء والغموض في آن بمأمن، بل ستتبدد أحلام الحياة الهانئة بعد اتهام كهذا!

أصابه القلق وهو يفكر في وصول الأمر إلى هذا الحد من التعقيد، وزاد قلقه ألا يصدقه الناس ـ رجال الشرطة والأمن والإعلام وزملاؤه الكتاب ـ عندما يخبرهم بأن هذه الشخصية المعتوهة التي لا تعي من تكون ولا ماهيتها؛ ما هي إلا شخصية هاربة من أوراقه، لم تكتمل ملامحها في ذهن كاتبها حتى هذه اللحظة، وما ذلك العته والتيه الذي تبدو فيه إلا لأنها هربت من أوراق كاتبها قبل أن تنضج، قبل أن يفكر الكاتب في سيرة متكاملة لها.

هذه المرة لن تشاجره زوجته وهي تصغي إلى كل الكلام الذي سيدور حول حياة زوجها الغريبة، بل ستكتفي بأن تطلب منه أن يخرج من بيتها ومن عالمها وأن ينفصلا أخيرًا إذ ثبت لها أن لا أمل مرجو من استمرار الحياة مع شخص مجنون مثله هو!

هرش شعر رأسه كعادته كلما وقع في مأزق، أو كلما تأزمت قصصه وحكاياته، ثم عقد حاجبيه وحاول أن يبحث عن حل لما آل إليه مجرى قصة لم يكتبها بعد، قصة لم يشأ أن يكتبها أو يفكر فيها مطلقًا.

نظر إلى كل الاتجاهات في مكتبه الصغير، وفكر في كل الاحتمالات الممكنة لحل هذه الأزمة التي أوقعته فيها شخصية هاربة لا يدري أين هي الآن ولا ماذا تفعل أو ما قد يكون حدث لها.

بكل تأكيد ليس حلًا أن يذهب برجليه إلى مركز الشرطة يخبرها بالحادثة، وإنه لأهون عليه أن تأتي الشرطة إليه متهمة إياه بالضلوع في جريمة تعذيب مواطن بريء، إذ إنه لمن السهل جدًا أن يخرج من القضية كالشعرة السوداء الضئيلة من تلك العجينة الثخينة! ولا يخال أن تصل الأمور إلى الدرجة التي يتهم هو فيها، فالمجانين كثر هذه الأيام، والناس لا

تفعل شيئًا تجاههم سوى الضحك وحسب ونشر النكات والصور والفيديوهات المضحكة عنهم! إن الشخصية الهاربة الآن ستظل في الشارع لا تعي أين تذهب أو ماذا تفعل، وعندما تجوع ستبكي، ثم تضطر إلى أن تلج محلًا لبيع المواد الغذائية أو أي مقهى تعيس تتسول من صاحبه طعامها وشرابها، وهذا هو أمرُ كلٍّ الشخوص المصابة بالعته والجنون.

وما دام الأمر كذلك فإن سمعته ليست على المحك ولا حياته الهادئة الرزينة، بل إن حياته ليست على المحك على الإطلاق ما دام هناك مجانين كثر غير شخصيته الهاربة، ثم من سيعرف أن له دخلًا في قضية هذه الشخصية، في حال باتت لها قضية؟

وهل سأترك كائنًا مخبولًا وشخصية فوضوية هربت من أوراقي تجول في الشوارع، وتحدث الفوضى والعبث؟

طرح سؤاله بصوت واضح بدا أنه يوجهه إلى شخص ماثل أمامه، كان ذلك الشخص هو أنا عندما قررت أن يعود إلى أوراقه ليكتب هذه القصة مجددًا وبشكل مغاير تمامًا عما كتبه هو في أول مرة ألحت عليه قبل سنوات!

المرة الأولى

البنت الأولى التي تعرف إليها عبد الرحمن لم تكن عذراء، اكتشف هذا الأمر عندما التقيا في ثالث موعد بينهما، حينما اصطحبها إلى فندق «الربيع» بالخوير، كان يومًا هادئًا حتى إن السيارات في شارع الوزارات الرئيسي لم تكن كثيفة على غير العادة. قال لها في الصباح الباكر بأنه سيمر عليها ويذهبان إلى الفندق المنزوي بعيدًا عن الأعين والقابع في زاوية مواربة لا يدخله إلا زبائن محددون.

كان اعتذر ذلك الصباح لمدير المدرسة التي يعمل فيها وقال له بأنه مضطر إلى الذهاب إلى مسقط لأن لديه معاملة مهمة لابد أن ينهيها في وزارة الإسكان، وإلا فإنه لن يحظى بالأرض التي وعد بها.

اتصل بها وهو يخرج من باب المدرسة فيما حارسها يرمقه بنظرة بلا معنى، قال لها بأنه في طريقه إلى مسقط وسيصل في حدود الساعة التاسعة والنصف، وطلب إليها أن تستأذن من مسؤولها في شركة

الإعلانات وأن تكون جاهزة ليمر عليها قريبًا من البناية التي تسكن فيها وزميلاتها العازبات القادمات من مناطق عديدة مثلها.

كان مهندمًا هذا الصباح، وكان يفكر كثيرًا أثناء الطريق، يفكر في شفتيها وفي نهديها وفي مؤخرتها التي لم يرها بعد إلا من وراء حجاب! يفكر في أن هذا اللقاء سيكون هو الأهم من اللقاءين السابقين حيث سيتجرأ هذه المرة بأن يخلع ملابسها كلها ولن يبقي على ورقة التوت!

كان مبتسمًا عندما شاهد لوحة ترحب به في أحضان مسقط، وأيقن أن الوقت بات أقرب مما كان يعد. اتصل مجددًا بها قائلًا بأنه الآن قريب من جسر الخوض، وبعد ربع ساعة سيكون في أحضانها يقبل شفتيها ويقضم حلمة أذنها اليمنى.

تساءل مرارًا: كيف يكون طعم حلمة الأذن؟

لكنه في اللقاءين السابقين لم يجرؤ على فعل أكثر من قبلة فوق الشفة العلوية، ضحكت لها وقالت له: أول مرة تبوس!! كان وجهه تبرقل، وأحس بحرارة عالية ترتفع في جسده، ثم ضحك واحتضنها كأنما في

حلم، وقال في نفسه بأن لحظتهما المقبلة ستكون أكثر جرأة، لن تكون ساعة أو ساعتين وفي سيارة توقفت في مكان بعيد عن الشارع العام وعن أعين الناس، أو في مطعم مسدل الستائر بغرف ضيقة وأبواب مواربة لا يطرقها سوى النادل المكلف خدمتهما. أما الآن فعليه أن يبدو ثقيلًا حتى لا تزهد فيه ويفقدها، وكانت تنظر إلى ساعتها فسألها إن تأخرت فقالت: تأخرت!

كان سعيدًا بأن تم اللقاء، لكنه تمنى لو حدث ما أراده، أما هي فبدت عادية وربما غير مكترثة. في تلك الساعتين كان حديثهما منصبًا حول ما يحبان في الحياة وما لا يحبان: أنواع المأكولات والسيارات والمطربين والممثلات، وكيف يحبان أن يقضيا أوقاتهما الفارغة، وتاريخهما في العمل، وكذبهما على رؤسائهما عندما يفعلان شيئًا خاطئا في عملهما أو يتأخران ويتغيبان عنه.

كانا حديثي العهد بالعمل، فهي عملت في شركة الإعلانات هذه بعد عدة محاولات للحصول على عمل في مجال تخصصها بالعلاقات العامة، وكما قالت له بأنها كانت تجد عملًا يناسبها ولكن الشباب كانوا يتحرشون بها ويضايقونها لكونها البنت الوحيدة أحيانًا التي تعمل في تلك المؤسسات.

وهو تعين بعدما انتظر عامًا ونصف العام قرار التعيين وبعد عدة محاولات جاءه الخير من باب أحد المسؤولين الذين تربطه بهم علاقات قربى ومصلحة فعين في منطقة قريبة جدًا من سكنه واليوم أمضى أكثر من سنة وشهرين في عمله مدرسًا لمادة التربية الإسلامية.

لكنه لم يجرؤ على التعرف بأي بنت مسبقًا لأنه لم يكن يملك سيارة ولا الشجاعة الكافية ليعاكس بنتًا في مجمع ما وليس له المال الكافي كي يغري أي واحدة به، فقصره كان مدعاة لأن تنفر منه أي فتاة، إضافة إلى أنه كان عاديًا ولا يملك نظرة قد تسقط البنت من وقفتها.

لكل هذا كانت سعادته بالغة عندما اتصلت به ذات صباح غير بعيد مخطئة في الرقم كما زعمت أو كما خيل إليه أنه زعم وليس صدقًا، فهو حتى الآن يعتقد بأنها اتصلت متعمدة، فكثير من الفتيات أيضًا يقمن بمثل هذا الأمر أي الاتصال بأي رقم بغية أن يجدن شابًا يصادقنه!

وصل إلى الخوير.

أمال سيارته إلى محطة تعبئة الوقود، وأوقفها أمام

محل السليكت، دخله وخرج حاملًا باقة ورد مبتسمًا فيما كان عامل عماني يملأ البنزين لسيارة تشابه سيارته ينظر إليه مبتسمًا كأنما يعرفه، ولم يره عبد الرحمن المبتسم، كان منتشيًا بغبطة كأنما يطير في السحاب.

ركب سيارته، ومضى.

رفع هاتفه النقال وهو يدوس دواسة البنزين ماضيًا إلى طريقه، ردت عليه: أنتظرك بجنب عمان موبايل.

ـ شو عندك هناك؟

وابتسمت بدلع: تغار علي؟

وأحس بالدم يتصاعد إلى رأسه، ولم يقل شيئًا، فقط: أنا جاي، وأغلق هاتفه واقترب كثيرًا من الشركة، كانت واقفة بعباءتها السوداء المفتوحة من أمام ذات الوردة الجميلة على طرفها، ورأسها مغطى بشيلة زهرية منقطة بورود حمر صغيرة، وتضع نظارة سوداء تغطي عينيها وجزءًا كبيرًا من وجهها الصغير، كانت مبتسمة وثمة شعيرات تنسدل على جبينها، فيما بنطالها الجينز بدا ضاغطًا على وركيها الصغيرين، المنتهيين بمؤخرة متوسطة وبخصر ناعم يبين من تحت القميص الشفاف الذي ترتديه.

فتحت الباب وانطلقا.

ـ اشتقتلك

ـ وأنا بعد...

كانا مبتسمين، وكان قلبه يخفق بشدة ويده تحاول إخفاء رجفتها الكبيرة حينما لامست ظهر كفها وأعلى فخذها المحاصر بالجينز.

هذه المرة سيكون الأمر مختلفًا، ولن يفوت الفرصة إذ لا يستطيع كل يوم أن يستأذن بحجة الأرض التي ستطير من بين يديه. سيجتهد أن يتم مشروعه الكبير الذي سيرويه في المساء لرفاقه عندما يتقابلون في سهرتهم قرب البحر، سيقول لهم بأنه فعلها أخيرًا وبأنه رجل وبأنها كانت تتلوى بين يديه وتصرخ من شدة اللذة والمتعة وهو نائم فوقها رافعًا قدميها إلى الأعلى، أو خلفها جاذبًا شعرها بيديه كما يمتطي فرسًا، وسيؤكد بأن امتطاء الخيول أسهل من امتطاء فتاة مثلها.

الهندي العامل في الاستقبال بفندق الربيع، الذي ليست له نجوم ولكنه نظيف ومرتب، لاحظ الارتباك ورعشة يديه، وابتسم. رأى العرق متفصدًا من جبينه

ورآها عادية وغير مبالية تتأمل في المكان كأنما تدخله لأول مرة.

أعطاه المفتاح وصعدا إلى غرفتهما، وهذه المرة سيحدث أكثر من قبلة وهصر نهد من خلف قميص!

دخلا، وكانت تتأمل المكان، كأنما تتأكد من مناسبته وبأن لا شيء سيعطل «مهمة» الحب التي جاءت بها إلى هذه الغرفة، فيما عبد الرحمن يغلق الباب بفرح مستطير.

ـ أخيرًا (قال).

وارتمت جالسة على حافة السرير، رافعة عن عينيها نظارتها السوداء، مبتسمة له، وكان متلهفًا واضح اللهفة وهو يرمي بكمته على كرسي قريب ويفك زر دشداشته ليخلعها ويجلس بمقربة منها على حافة السرير بملابسه الداخلية فقط.

ـ بجد اشتقت لك.

ـ متأكد؟

ـ أحبك.

انقضت شفتاه عليها تقبيلًا ويداه تعبثان بقميصها

الشفاف تفككان أزراره، وثمة هواء ساخن يتصاعد وحرارة تتعالى.

لم يدر بعد حتى الآن كيف استطاع أن يرمي بعباءتها وقميصها وصدريتها في أقل من دقيقة ويجعلها تقف أمامه ببنطال الجينز فقط! ولم يدر فعليًا كيف واتته القدرة أن ينقض مقبلًا إياها هكذا! إذ لم يكن يجرؤ من قبل، ولكن ثمة إحساس قوي بقدرته هذه المرة على أن يفعل كل شيء.

لم يكن يشعر بالوقت، كانت حرارة ما تقوده، فيما أنين لذيذ يخرج منهما وهو يضغط بيديه على نهديها كأنما يعصرهما.

وقف، واستدار إلى النافذة ليغلق الستارة، ثم أطفأ الضوء مسرعًا إليها ليعانقها ويقبلها من جديد، ولسانه يقذف بكلمة «أحبك» كلما طبع قبلة في مكان من أماكن جسدها البض الناصع قمحًا.

ارتمت هي على السرير متنهدة وتغطت بالبطانية، ثم اندس بجانبها وقبلاته تتساقط على وجهها كالمطر: شوي شوي، لا، البنطلون، أي..............................

. . . . كان يحملق في المروحة التي تدور ببطء في السقف، والعرق يتفصد من وجهه وجسده العاري، وكانت يدها ترتمي بخدر على صدره كثيف الشعر ووجهها ينظر إلى مرآة مسمرة في الجدار فينكس جسدان فيها بلون متدرج من القمح، وكان الضوء خافتًا، وثمة نبض يتسارع.

كان الصمت وحده يتحدث حينئذ، وعبد الرحمن يزفر لاهثًا من التعب والمتعة، لكنها قطعت الصمت بانقلابها فوقه ليرتفع الدم مجددًا إلى رأسه، قبلته على جبينه ثم على أنفه، ثم فوق شفته السفلى:

ـ شكلك أول مرة، ما صح؟

ولم يتكلم، كان الدم يدغدغه من داخله ويرفع حرارته مجددًا.

ـ بس كنت زين.

لكنه قطب حاجبيه وعنَّ له سؤال غريب:

ـ انت كم جربتي قبلي؟

وقهقهت هي عاليًا.

ـ شو اللي يضحكك؟

ـ سؤالك.

ـ سألتك كم واحد؟

ـ بصراحة ما أتذكر.

وقهقهت مجددًا، ثم انهالت على شفته تقبله، وذابا مجددًا في موجة جديدة..........

.... لكن ماذا سيقول الآن لأصدقائه في جلسة السمر المسائية؟ كان هذا هو السؤال الذي يعنُّ في بالي وأنا أكتب قصته! إنها من عظائم الأمور أن يقول لزملائه الشباب بأن فتاته الأولى كانت صاحبة خبرة! وبأنه لم يكن أول من ولجها! بالتأكيد سيغمزونه بكلام كثير وسيضحكون في وجهه وهم مستثارون وفي رؤوسهم عريها اللذيذ!

إلا أنني كنت أعرف بشكل مؤكد بأنه سيبتكر حكاية جيدة يتحدث فيها عن مغامرته، التي بكل تأكيد ليست الأولى! سيخبرهم بأنها لم تكن عذراء ولكنها في المقابل كانت كقطعة سكر في كوب شاي! ذائبة في هوسها الجنسي، وفي فحولته الصارخة والضخمة!

عليّ زميله المدرس الذي كان دائمًا يساعده على كذبه على المدير، سيحاول جاهدًا أن يشارك صديقه في الفتاة، وهو بكل طيبة خاطر وبقلب كريم سيعطيه

رقمها، ولكن ليس قبل أن يضاجعها للمرة العاشرة، لأنه ـ وهذا ما كنت أعلمه ـ سيكون ساعتئذ تعرف إلى فتيات جديدات، سيكون فعليًا تعلم كيف يوقع الفتيات في شباكه، وبكل تأكيد أيضًا لن يعنيه قضية أن تكون عذراء أو لا تكون!

هذا ما وطّن عليه نفسه، بل سيتبادل مع خليفة ـ مدرس الكيمياء الوسيم صاحب الجولات المعروفة والجرأة التي لا يضاهيه فيها أي مدرس آخر، والذي بعد ليلتين من زواجه بإحدى المدرسات اللائي تعرف إليهن وقت التصحيح وتأكد أنها امرأة مستقيمة، ذهب إلى صديقتيه المغربيتين اللتين تعرف إليهما في محل للمساج وضاجعهما معًا طوال ليلة كاملة بعدما كانتا أنهتا عملهما في محل المساج، وعندما سألته زوجته التي قلقت بشأنه طوال الليل، خصوصًا مع عدم إجابته لاتصالاتها الكثيرة، قال لها بكل برود: سهرت ويا الشباب وخذتنا السوالف والشوا وتلفوني كان بالسيارة، وبعدين ما دريت بعمري إلا وأنا نايم وبشمس الصبح وهي تحرق عيوني!. سيتبادل وإياه أرقام الهواتف وربما سيفعل كما فعل خليفة مع حسن عندما ضاجعا معًا فتاة وسط السيح دون أن يكلا أو أن تمل هي منهما!

أما فتاة عبد الرحمن، فيجب أيضًا أن أخبركم عنها قليلًا، فهذه القصة لا تكتمل إلا بها، وسأصارحكم القول بأنها عندما أخطأت في رقمه في ذلك اليوم، كانت مصابة بحالة من الجوع، خصوصًا أن رفيقها قرر أن يهجرها لأنه يريد أن يبدأ صفحة جديدة! ولذلك سهّل على عبد الرحمن أن يواعدها في يوم المكالمة إياه، وذلك بعد عدة اتصالات بينهما بحجج كثيرة، أقلها الاعتذار عن الخطأ الأول، وللتأكد من أنه ليس زكريا الذي سألت عنه في أول اتصال لها به!

وعندما ضحكت وهي تسمع سؤاله عن المرات السابقة لها في الجنس، تذكرت الأحداث القديمة التي جعلتها تصل إلى أن تتعرف إليه، وإلى آخرين بطبيعة الحال، فالبداية كانت قبل موعدها الحميم ذاك بعدة سنوات، عندما أحبت زميلها في الجامعة، أو هذا ما أوهمت به نفسها، وكانا يلتقيان بصفة تكاد تكون يومية في أروقة الكلية وفي الممرات، ويتبادلان الرسائل الهاتفية ونظرات الشوق والحب المزعوم، وعندما طلب منها أن يلتقيا بعيدًا عن أعين العذال كما قال؛ دق قلبها كثيرًا، ودارت في رأسها هواجس القبلات والكلام المحموم الذي كان يدور بينهما عبر الهاتف.

- بس وين؟

- برا الجامعة طبعًا!

- انت مجنون؟!

- أيوه، أنا مجنون في حبك يا بدور.

نسيت أن أخبركم أن هذا هو اسمها، وفي أحيان يدلعها بمناداتها: باونتي، على أساس أنها في نظره تشبه في لذتها الشوكولاتة المعروفة! وفكرت كثيرًا وهي تسمع تلك الدعوة، وتساءلت في أعماقها: كيف يمكن أن أخرج معه من الجامعة دون أن يمسكوني؟ وهو كان لديه الحل السحري: أن يضعها في صندوق سيارته، وأن يطوفا في ذلك الصباح كل محاضراتهما، ليهنآ بنفسيهما!

وبالفعل حدث ما خططا له، وخرجت في صباح ذلك اليوم عبر سيارته ذات الموديل القديم، ونجيا من بوابة أمن الجامعة، وذهبا إلى حيث كان استأجر غرفة في فندق لم تتذكر اسمه ولا مكانه لانشغالها بقلبها الذي كان يرجف بمشاعر متناقضة جدًا.

عندما دخلا الغرفة لم يتكلما، كانا يبتسمان بارتباك، ونظراتهما بدت حامية، وسارع هو إلى

احتضانها لتسري في جسدها نار حامية، ويحدث ما تتخيلونه الآن.

وطوال ست ساعات لم يخرجا، كانت غارقة في العرق برغم المكيف، وكان بجوارها ساقطًا في العرق إياه، وكانا عاريين، وجسداهما متلاصقين تمامًا، وكانا تعبا الآن، وأدركا أن الوقت يمضي لغير مصلحتهما! ذهبا للاغتسال معًا وهناك ظلا نصف ساعة أخرى من جديد، وعندما خرجا كان قلب كل واحد منهما ينبض بسرعة شديدة.

ارتديا ملابسهما بصمت، وعندما أدخلها الجامعة بالطريقة إياها وأنزلها في المواقف المظلمة عند المستشفى الجامعي، تذكرت أنها وإياه لم يتبادلا أي كلمة طوال جلستهما الطويلة تلك، بل يومها لم يتحدثا مطلقا ولم يتكلما كالعادة، لأنها نامت حتى ظهر اليوم التالي، وفي أعماقها بحر من مشاعر متضاربة.

الغريب أنني وأنا أكتب سطور قصتها تذكرت أنها لم تكلمه مدة أسبوع، بل هو ذاته لم يبادر إلى الاتصال بها طوال تلك المدة، وفي اليوم الثامن اتصل وكأن شيئًا لم يحدث.

مذ تلك المرة، تأكد لها بأن حياتها أمست

مختلفة تمامًا عما كانت، وبعد تخرجها لم تعد تحسب، كما أخبرت عبد الرحمن، وفعليًا لم تكن تتذكر أحدًا من الذين مروا عليها، وحتى عبد الرحمن عندما يتسرب الملل إليه، ويبدأ بالتقليل من معاودتها، ستكون هي تعرفت فعليًا إلى شخص جديد، لن تتذكره!

بمحاذاة البحر قريبًا من التيه.. ربما

«ليس أمرًا سهلًا أن لا تعرف ما الغاية من وجودك في الدنيا؟ وكيف أتيت؟ ولماذا ليس لديك تاريخ في الحياة؟»

هكذا كانت الشخصية تحدث نفسها بمرارة واضحة! لقد اكتشفت أخيرًا أنها بلا تاريخ، بأنها عارية، ولا جدوى من حياتها، إذ إنها لا تعرف ما الخطوة التالية؟

حتى طريق العودة إلى البيت لم ترسمه في ذهنها، وعندما تتذكر هذا الأمر ينطرح في الحال تساؤل جديد: هل هناك منزل أصلًا؟

كانت تحدث نفسها وهي ترقب الشاطئ الممتد أمامها، وليس هناك أي شيء في الذاكرة، التي كانت كالبحر: غامضة ومفعمة بالحيرة والامتداد غير المجدي اللانهائي الذي لا يوصل إلى شيء. «ماذا لو أوصلني

هذا البحر إلى شاطئ آخر؟ ماذا لو أن البحر غسلني فتعرفت إلى ذاتي؟ ذاتي التي ربما كانت غارقة في العمق، تسبح مع الأسماك وتظن أنها واحدة منها، ولا تجد مرآة فترى الفرق بينها وبين تلك المخلوقات؟...»

لكن البحر كان هادئًا وموجه شهد أكبر انحسار له في ذلك اليوم. كان الوقت قبيل الأصيل، في تلك اللحظة التي يحبها كثير من الناس، حيث يتريضون في الممشى المحاذي للشاطئ الجميل، والشمس تسقط في كبد البحر محدثة مشهدًا بصريًا بطيئًا جدًا.

لم تكن الشخصية، حتى لحظتها هذه، معنية بشيء، لا بالناس الذين يمرون حولها، ولا بالشمس التي توشك على السباحة في الأعماق، ولا بالنوارس قليلة العدد حينذاك.

كل ما يعنيها حينئذ كان البحر ذاته، البحر فقط، إنه كائن مبهم هذا البحر، كائن غامض ومحير، كائن جذاب ومرعب، فهل لو ذهبت إلى أعماقه أتعرف إليّ؟

لم يكن البحر يصيخ السمع، كان شبه نائم، وموجه لا يتحرك، وثمة أطفال يهرولون بكراتهم هناك، يتصارخون، يتراكضون، يضحكون، يبنون قلاعًا وقصورًا رملية، ولا يلتفتون إليه.

«هل كنت طفلًا؟»

مرة أخرى ألقى على نفسه تساؤلًا آخر، ولم يسمع من البحر أو الأطفال أو الناس أو الرصيف أي إجابة. وفي تلك اللحظة ذرف دمعة وقال بأنه لابد أن يكون نكرة، نكرة ضخمة في هذا الوجود.

«أخ» ولوح بقبضة يده في الهواء، قطب حاجبيه، ونظر إلى لا شيء، وكان في أعماقه ثمة ما يثور، وكأنه موجة تود الخروج أو شمس تود أن تصحو من عرض البحر.

«اسمع أيها الـ... عليك العودة إلى كاتبك، سيعطيك اسمًا، تاريخًا، ستعرف حينئذ من أنت! ستعرف أنك لست نكرة، ولا مبهمًا في هذا الوجود! أنت لك حضورك، لك امتيازك الإنساني، لك أشياء كثيرة كالآخرين: ذكريات، سواء كانت سلبية أو إيجابية. إياك أن تخرج للناس وأنت لا تدري من تكون! هيا انهض. هؤلاء لن يعطوك الدواء ولا الإجابة، فهم لا يرونك الآن وإن رأوك فلن يتعرفوا إليك لأنك هلام، أو كما ذكرت قبل قليل: نكرة.. لكنك ستتخلص من ذلك عندما يؤوب الكاتب إلى رشده ويعرف كيف ينسجك ضمن واقع نصي منطقي، أما الآن، وفي هذه اللحظة بالذات،

ستظل عبثًا على هذا الكون لأنك بلا تاريخ ولا حياة ولا ذاكرة! هيا انهض وعد من حيث أتيت: من الورق الذي قررت في لحظة غباوة أن تعاند كاتبك المزاجي وتجبره على تغيير مخططاته فهربت»

افتر ثغره عن ابتسامة منتصر، أو لنقل شبه منتصر، إذ أعاده الصوت الذي أطلقته نفسه إلى خيوط الحل الممكن، عزم لحظتئذ أن يمسك بتلك الخيوط الذهبية التي انعكس فيها ضوء الغروب الساحر، ونهض برشاقة لا يتميز بها أحد سواه، وبدأ يخطو أولى خطواته حيث سيعود إليّ أنا الكاتب، كي أعنفه أولًا على ما فعل في آخر مرة قرر فيها أن يتمرد عليّ، ثم ثانيًا سأرخي وجهي وأطمئنه بأني سأكتبه ضمن إطار القصة التي كنت وعدته أن يكون فيها حتى ولو تأخر الوقت قليلًا! سأعرفه أن الكاتب لا يأتيه الإلهام هكذا بسلاسة، بل يحتاج إلى وقت حتى يستطيع أن يجد لأبطاله حبكة ملائمة.

ها هو الآن يمشي بخطى متئدة مغمض العينين واثقًا بذاته، متوجهًا إلى حيث ينبغي أن يكون: الورق، وبرغم أن المسافة مرهقة فإنه سيمشيها بكل حب وامتنان، حتى إن لم يكن يعلم الدرب التي تؤدي إليّ،

تؤدي إلى المكان الذي سيخرج فيه بطلًا، يتعاطف الناس مع قضيته

كنت جالسًا أمام جهازي أدون تفاصيل الحياة كما ينبغي، ولا أدري لماذا تبادر إليّ أنه كاد ينتحر وهو يشاهد البحر ويتأمل حظه التعس هناك؟ ربما لأنه أوشك أن يصل إلى حافة اليأس النهائي من هذا الوجود الذي وجد فيه خطأ!

هو الذي اختار أن يتمرد، ولست أنا من وضعه في هذا المأزق، ولو انتظر قليلًا لكنت وضعت له حكاية سعيدة، إذ كنت أجهز له حبيبة من فل وياسمين، سيتزوجها في ليلة قمراء، وينجب منها ثلاثة أطفال أبرياء يعيشون حياة هانئة برغم كل الكوارث التي ستعترضهم، وبرغم الحاقدات على امرأته اللائي سيفعلن المستحيل كي يجعلن من تلك الحياة السعيدة، حياة تعيسة. حاولت إحداهن ذلك، وكنت لها بالمرصاد عندما كشفت خبيئتها أمام الحبيبة الطيبة، بأن مصادفة ما حدثت كشفت أوراق الخدعة التي تدور، وكانت صورته ما تزال حتى هذه اللحظة ناصعة البراءة!

هذا لم يحدث بسبب غباوة هذه الشخصية! فهروبها المفاجئ خرّب كل شيء، وأضاع هذه القصة

السعيدة، وبددها كما يتبدد زغب البحر أمام الأمواج المتلاحقة.

ولذلك كانت الفتاة التي سيلتقيها بعد قليل في الطريق إليّ؛ سيئة السمعة، لعوب، تمتطي صهوة سيارة رياضية ذات دفع رباعي وبرقم مميز. لا أدري ما الذي أغراها في شخصية تبدو بلهاء في مشيتها هكذا بالطريق، ولكنها توقفت وفتحت الباب الأيمن وانتظرته حتى يقترب من السيارة حيث ستقول له: أنا سأوصلك أيها الوسيم! فعليًا هو ليس وسيمًا كفاية، وكان هروبه أيضًا مدعاة إلى أن يكون أحمق وغبيًا.

أبطأ هو من سيره وكنت أرى في داخله استغرابًا ما، وقال لنفسه بشيء من الفرح المشوب بالاستغراب: ربما هذه سيارة الكاتب جاء ليقلني! وعندما اقترب من السيارة وجد أنها امرأة قد تكون في الثلاثينيات من عمرها ولكنها تبدو جميلة ومغوية بملابسها التي تناسب موضة هذه الأيام، والتي تدل على الفتنة التي تعيش فيها.

عقد حاجبيه: هل هي الحل الذي ينبغي له أن يتمسك به؟ اصعد أيها الوسيم، سأوصلك! وصعد الوسيم إلى السيارة الرياضية الجميلة.

ـ هل تعرفينني؟

ـ هل من المهم أن أعرفك؟ (يا لوقاحة هذه المرأة التي تنتفخ شفتاها بإبر «البوتكس» وصدرها يعاند الحبس الإجباري)

ومضت به.

ـ إلى أين سنذهب؟

ونظرت إليه ولم ترد. ابتسمت فقط نصف ابتسامة وعادت تتابع الطريق الحافل حينئذاك بالسيارات الذاهبة إلى أماكن شتى.

دار في خلده لحظتئذ أنها هي الكاتبة، وأن الصوت الذي نبهه قبل قليل إلى ضرورة العودة، كان صوتها مع بعض الإضافات التي جعلت منه صوتًا أدكن وغليظًا! ولكن إلى أين تحمله هذه الكاتبة؟ هكذا سأل نفسه وهو يراها لا تلتفت إليه بل تركز نظرها في الطريق أمامها كأي امرأة تقود سيارة في كل هذا العالم.

حاول أن يتعرف إلى مضيفته من خلال سيارتها، ولذا أخذ ينظر حوله ويدقق النظر: الكرسيان الخلفيان نظيفان، ولا أثر لأوراق أو أقلام أو كتب، بل إن السيارة كلها بدت نظيفة إلا من علبة صغيرة بحجم

قبضة اليد كانت تربض جواره، إنها علبة سجائر من ماركة مالبورو حمراء وقريبًا منها توجد ولاعة على شاكلة رجل عارٍ بنية اللون.

هذه المرأة ليست كاتبة، وهي مدخنة، ويبدو أنها تحب الرجال! خطر في باله هذا الافتراض الساذج الذي برغم سذاجته إلا أنه يقترب بعض الشيء من واقع المرأة، فهي كما أسلفت امرأة لعوب تعرفت إليها من بعيد عندما كنت مع صديق عزيز في جلسة بأحد المراكز التجارية، يومئذ مرت قريبًا منا ونحن نحتسي الشاي بالحليب فتعلقت عينا مرافقي بها ولم يعد ينصت إلى حديثي عن الأفكار التي يمكن أن تشكل نصوصًا قصصية.

لاحظت ذلك فصمتت حتى ابتعدت وتوارت في الحشود الكثيرة، لحظتئذ سألت مرافقي فابتسم قائلًا :

ـ إنها النسخة الأشهى من كل بطلاتك في نصوصك الوهمية!

ـ كيف ذلك يا أيها الضليع؟

فأخذ يروي كيف تعرف إليها وما هي قصتها لتكون هي المرأة التي ينبغي لي أن أسجلها بطلة في نص من نصوصي!

قال بأنه تعرف إليها في معرض عن البيئة فهي تعمل اختصاصية بيئية وبالتحديد في مجال الحفاظ على الأنواع النادرة. أخذت تتحدث إليه يومذاك عن ضرورة حفظ الأجناس الحية من الاندثار والانقراض وبأن الإنسان سبب الألم للأرض باستهلاكه أجناسًا كثيرة معددة وقتئذ الأنواع التي انقرضت، والأنواع المهددة حاليًا بالانقراض وبأنه من الضروري إيجاد خطط عملية مدروسة لإكثار الأجناس المهددة، وكذلك دراسة إمكانية إعادة الأجناس التي انقرضت.

لم يكن يعنيه لحظتئذ كل هذا بل كانت شفتاها المكتنزتان هما ما يشغل ذهنه وعينه وقلبه! إنها امرأة ممتلئة بالرغبة! وبما أنه من نوعية الرجال الذين يستطيعون النفاذ إلى ما وراء القلوب، فقد تأكد لديه أنها ستستجيب عندما يعطيها رقم هاتفه النقال.

ولكنها فاجأته عندما قالت له بغتة: لست من النوع الذي يستهويني!

تلك الجملة هي التي أضاءت معالم هذه البنت اللعوب التي تقود الآن السيارة بحزم وبثقة عالية، وتجلس الشخصية على الكرسي المجاور لكرسي السائق.

ما يزال مستغربًا، وكأنه يواصل حلمًا ما، وكنت أتساءل: إلى أين يمكن أن توصله هذه الفتاة؟ ربما ذهبت به إلى بيتها وعرفته بأطفالها مع أنني أشك في وجود أطفال في حياتها، إذ إنها من النوعية التي لا يمكن لها أن تستقر أسريًا، وإن فعلت فإنها تجعله استقرارًا يشبه الستارة التي تغطي النوافذ فلا يظهر ما وراءها إلا قليلًا.

واحتمال أن يكون لها بيت احتمال ضعيف، ولذا فإن ثمة احتمالًا أن تذهب به إلى الشقة التي تتشارك فيها مع فتاتين أخريين في هذه المدينة الواسعة، الأولى تعمل مدرسة حتم عليها أن تعمل في هذه المدينة البعيدة عن بلدتها الصغيرة في الشمال، وهي متزوجة رجلًا يعمل في حقل نفط بالصحراء لا تراه إلا كل ثلاثة أسابيع، وليس لديها أطفال ولا تفكر كصاحبتها اللعوب التي لا يعتريها إحساس بالذنب إن أقدمت على إحضار رجل غريب إلى الشقة المشتركة.

أما الثانية فهي عاطلة عن العمل أو بمعنى أصح تجد عملًا لتفقده بعد يومين لأنها حتى الآن لا تريد أن تقع في الحرام أو أن تفعل ما يوقعها في شبهة الحرام! وآخر عمل استقالت منه كان في شركة تدريب وتأهيل

اكتشفت في يومها الرابع أنها تنظم دورات في كيفية خدمة الزبائن وكانت بعض أدوات الدورة أنواعًا من الزجاجات التي سمتها إحدى المتدربات «المشروبات الروحية»!

هل يمكن لها أن تفعل ذلك؟ أن تحضر شابًا غريبًا إلى الشقة المشتركة؟ ثم كيف توافق الفتاتان الأخريان على هذا الفعل؟ إنهما على النقيض منها تمامًا، ولا أظن أنهما تسكنان في شقة مشتركة مع فتاة مثلها! وإذا صح أنها ستحضره إلى الشقة فلابد أن تكون الفتاتان الأخريان مثلها تمامًا.

هما غير مهمتين الآن، المهم هي هذه الفتاة اللعوب الواثقة بنفسها، ولذا كان عليّ أن أفهمها أكثر من فهمي للشخصية التائهة، شخصية هذا البطل الورقي الذي ظل صامتًا لا يتكلم، يفكر فقط في الأحداث الأخيرة التي حدثت له والتي أوقعته في النهاية بيد هذه المرأة التي لا يعرفها.

ولكي أفهم هذه البنت عليّ أن أعود إلى اللحظة التي تولدت فيها، عندما كنت ورفيقي في زحام المجمع التجاري ننتظر أن يأتينا النادل في المقهى بطلبنا المعتاد.

في اللحظة التي ذابت هي في الزحام الكثيف، تولدت في رأسي الفتاة اللعوب، تلك التي لا تعترف بأي شيء له قيمة غير نفسها، كانت ابنة طيعة لأبويها، حتى أرغمها على أن تدرس في كلية التربية بالجامعة مع أن نسبتها كانت تؤهلها للدراسة في كلية التجارة والاقتصاد كما كانت تحلم، ولكن والدها أصر على أن ابنته لا ينبغي أن تدرس إلا في كلية التربية لتصبح مدرسة لا تخالط الرجال.

حزنت كثيرًا لهذا القرار، ولم تبدي أي نزعة لمخالفته، لكن ومنذ ذلك الوقت تولد في باطنها شعور بالظلم وبأن كل الرجال سيئون كوالدها الذي حرمها فرصة العمر مع أنه لم يكن كذلك في أي وقت مضى، كان دائمًا حنونًا وعطوفًا وذا بسمة بيضاء تطل على وجهه كلما طلبت منه شيئًا.

ومع أنها صرحت له برغبتها في دراسة التجارة والاقتصاد إلا أنه أصر على رأيه وقال لها: يا بنتي لا ينبغي لك أن تدرسي إلا ما يصونك! «لم تفهم معنى ذلك، ولكن ثمة ما تفتت في داخلها».

لم يتحقق للأب مراده، ولا مراد ابنته أيضًا، إذ تم قبولها في كلية العلوم، ولأنه لم يرد لها أن تفوت

فرصة الجامعة قبل على مضض، وعلى احتمال حلم بأن تحول إلى كلية التربية، وهذا ما سعت هي إليه جاهدة ألا يحدث طوال سنواتها الجامعية، بل إنها اختارت تخصصًا يبعدها لاحقًا عن حقل التربية.

عندما حصلت على الشهادة كانت زميلاتها خريجات التربية قعدن بالبيت، فيما هي حصلت على فرصة العمر كي تعمل اختصاصية بيئية في العاصمة، وبرغم أن هذا كان معاكسًا لأحلام والدها إلا أنه رضخ للأمر الواقع وخصوصًا مع وجود فتيات كثيرات يعرفهن لزمن بيوتهن برغم حصولهن على شهادات في مجال التربية.

لاحقًا لم يعد الأب قلقًا، خصوصًا أن ابنته باتت تشغل منصبًا جيدًا في جهة عملها، برغم بعدها عنه، وبرغم عدم تقدم أحد لخطبتها حتى الآن.

ربما أيضًا تقاعده هو، جعله أكثر صمتًا وتفكرًا في حال حياته دون عمله الذي أحبه في السنوات الماضية، أما ابنته فكانت ترضيه بالهدايا وتقول له بين الحين والآخر: هذا أفضل من التربية!

ما لا يعرفه الأب ولن يعرفه إلا بقدرة قادر أن ابنته لم تصل إلى ما وصلت إليه لولا أنها تعلمت في

سنوات الجامعة أن الأشياء الجميلة لا تأتي بالأمنيات فحسب، ولا بالطرق السوية كما كانت تقول لها صديقتها المقربة جدًا منها التي علمتها كل الأساليب التي توصلها إلى ما تريد، صديقتها التي سافرت منذ عام إلى الولايات المتحدة لإتمام دراستها على نفقة الحكومة لأنها امتلكت كل المفاتيح الخاصة التي توصلها إلى ما وصلت إليه.

هذه التفاصيل كانت تنزرع في رأس الشخصية وهي تحملق ببلاهة عفوية في الطريق، ينظر إلى أعمدة الإضاءة والشارع المسفلت والسيارات المختلفة ويفكر في الفتاة اللعوب التي بجواره تقود السيارة. كانت ترتدي بنطال جينز منقوشة عليه وردة بلون وردي كالح جهة الفخذ اليمين، وثمة شق ضئيل يبدو منه نهر أبيض لدن جميل، فيما قميصها الفستقي يزدان بأزرار على هيئة ورود متفتحة صغيرة وبهية.

كانت هي تضع نظارة شمسية كبيرة الحجم تمثل موضة هذه الأيام، وشفتاها المكتنزتان باحمرار خافت تلوكان علكة لا تتماشى مع كونها فتاة متأنقة.

كانت صامتة ولا يدري أسباب ذلك الصمت، ولا يدري لماذا لا يتكلم ولا يسأل: إلى أين نحن

ماضون؟ كان يفكر في أن يكون له كيان، في أن يصبح إنسانًا مثلها، قادرًا على الحياة، على الفهم، على استيعاب الأشياء التي حوله.

ظل ينظر ببلاهة منتظرًا أن تقول له في أي لحظة بأنها ستعطيه حياته التي فقدها في لحظة جنون عندما قرر أن يفر من ورق كاتبه، لكنه لم يكن يعلم أنها ليست الكاتبة، وبأنه سيظل تائهًا لا يعرف ما مصيره، حتى أنا لم أعد أعرف ما مصيره، ولا أعرف لماذا ورطته مع هذه الصامتة منذ زمن ولا تتكلم وكأنها قطعة زائدة في هذه القصة!

كان الصمت وهدير الشارع وحدهما يبسطان تحركهما إلى ما لا يعرفان، عندما بدت القصة بلا معنى وبلا قيمة وبلا حياة، ثم فجأة أوقفت السيارة، وطلبت منه أن ينزل، فنزل بآلية ونظر إلى السيارة الرياضية وهي تمضي في الهدير الصامت الغامض.

عاد إلى نقطة البداية، وكنت أرى يأسه في أن يجد طريق العودة إليّ، أن يجد ذاته، أن يدله سواد الشارع إلى وجهته التي يريد.

لم تكن هناك بوصلة، ولا خريطة للوصول. كان

هو تائهًا لا يعرف ماذا يكون؟ ولا إلى أين ينبغي أن يكون؟ وكنت أرى ذلك التعب واليأس والضياع ولا أعرف ماذا ينبغي أن أفعل له كي أخلصه من ذلك التيه!

مشابهة لهذه تقريبًا!

ستكره نفسها بكل تأكيد بعدما تتخلص من الورطة التي وجدت نفسها منغمسة فيها حتى العمق، وستفعل ما ينبغي لها أن تفعله فعليًا: أن تخرجه من حياتها، بل ألا تكون بهذه السذاجة التي أوقعتها في هذه الورطة.

أما الآن فإن أهم ما في الأمر هو أن تخرج مما تورطت فيه وتعود إلى حياتها الهادئة قبل أن تنغمس في هذه القصة.

كان الشرطي يتأملها من خلف النافذة المعتمة، وهي جف ماء وجهها وبانت كمقعد السيارة الذي تجلس عليه.

من حسن حظها أن نوافذ السيارة الصغيرة معتمة، وإلا كان سيشاهدها من البعيد أثناء سيره تجاه السيارة؛ وهي تعيد ارتداء عباءتها. كان سيرى جسدها المتوهج قبل قليل بالإثارة الناصع ـ بفعل محل التجميل الذي

يبدو أنها زارته قبل مدة قصيرة جدًا ـ حيث تلك القطعة السوداء وحدها الساتر لها.

لكنها في كل الأحوال لم تتمكن من وضع «شيلتها» فظل شعرها منسدلًا على كتفيها ومشكلًا بلونه الأسود ـ بالتقاطع مع عباءتها ـ لوحة سيريالية.

كان الشاب ـ صاحب السيارة ـ ترجل وحث الخطى إلى الجانب الآخر حيث الشرطي ما زال يحدق إلى النافذة المجاورة لها لعله يتيقن شكل الجالسة جوار تلك النافذة، وشعور ما بل حدس خاص بأمثاله من رجال الشرطة يقول له بأن هناك قصة «سكسية» كانت على وشك الوقوع!

ـ فيه شي حضرة الشرطي؟

سأله الشاب الذي ظل محافظًا على مسافة ثلاثة أمتار من الشرطي. كان يعتمر «كمته» كيفما اتفق ودون أن ينتبه إلى أن جيبه العلوي مفتوح، مما جعل الشرطي يفكر مليًا في القصة «السكسية» ويندمج فيها لثوان معدودة مشكلًا تفاصيلها كما يحب!

كان يتأمله جيدًا ويعقد حاجبيه غاطسًا في لذة قصته التي ألفها توًا ثم يميل نظره إلى النافذة المعتمة لعله يقبض على تضاريس القصة بشكل أوفى.

ـ الليسن والملكية.

أدخل الشاب يده إلى جيب «دشداشته» وأخرج محفظته.

كان واضحًا ارتباكه، وبأن هناك ما يتستر عليه، أمر قد يودي به، لكنه جاهد ألا يبدو أي من ذلك أمام الشرطي، وألا تتفتح مخيلة الشرطي بالكثير من الاحتمالات التي تسقطه دفعة واحدة. إنه حتى اللحظة تلك كان في موقف سليم فما الذي يمكن للشرطي فعله؟ ما الذي سيجعل الشرطي يقدم على خطوة متقدمة؟ كل شيء في منطقة آمنة: عمرها، وضعيته معها، المكان الذي اختاره ليوقف فيه سيارته الصغيرة الذي هو ليس بالمكان العام وليس بالمكان المشتبه فيه أو الذي يمنع فيه التوقف أو المرور، كما أن السيارة باسمه وسجله المروري يكاد يكون نظيفًا لولا بضع مخالفات سرعة اعتيادية لا تتعدى الست.

كان قبل هذا الموقف الذي هو فيه الآن؛ وضع في مخيلته عدة تصورات وسيناريوهات جاهزة منذ اللحظة الأولى التي ركبت فتاة سيارته، بل إن هذا الموقف بذاته رسمه في عقله بكل تفاصيله تقريبًا، عدا الارتباك الذي بدا واضحًا عليه، وفي كل الأحوال

الصورة في الخيال غيرها في الواقع، كما لا يبدو الأمر سهلًا مهما حاولت نفسه أن تثبت له غير ذلك، ومهما كانت هذه القصة أقل تعقيدًا من قصة أخرى لم يستطع قط حتى الآن أن يرسم لها تصورًا خاصًا: قصة أن يكون هذا الشرطي ليس شرطيًا، لكنه والدها أو أخوها أو زوجها في أسوأ الأحوال! ماذا يمكن أن يحدث له حينذاك؟ كل الإجابات كانت تتبدد في حلق قصته، وكل السيناريوهات تتوقف وتجمد فيها الصورة على وجه الأب/ الأخ/ الزوج!

كلما تسربت وجوه هؤلاء إلى عقله ومخيلته اقشعر واستعجلت القصة نهايتها، حينما ترتسم في الهواء سحب تتكاثف إلى درجة السواد فلا يرى إلا عتمة نفسه فحسب، عتمة تتحول إلى هوة بلا قرار وكأن حياته سقطت في الفناء اللامتناهي.

لا يملك في تلك اللحظة أن يقاوم ابتسامة تطل على وجهه، هي ابتسامة فاشل لا محالة، بل ابتسامة من يدرك أن لا مفر من الموت.

لحسن حظه أن الواقف أمامه الآن في هذه القصة ما هو إلا شرطي شاب يبدو أنه مستجد لم يمضِ عليه وقت طويل في هذا العمل، شرطي لطالما دخل في تفاصيل كل تصور وسيناريو وقصة أعدها من قبل.

مع ذلك أصابه الارتباك، مما يجعل كل حرف يخرج من فمه يبدو مهزوزًا مرتعشًا خافتًا يكاد لا يصل إلى أذني الشرطي.

ـ تفضل.

كان يجاهد أن تكون وقفته متزنة، فيما الشرطي يقلب الرخص في يديه ويفكر في أمر، وكان يمكن أن ينتهي كل شيء وتتوقف عند هذا الحد القصة، يسلمه الرخص ويطلب إليه التحرك من ذلك المكان المنعزل المرتفع المطل على فضاء واسع وبحر يلمع من قريب تحت سماء بدأت تشرئب بحمرة الغروب، يمضيان إلى مكان أكثر أمنًا من هذا المكان وبلا مخالفات، كان يمكنها هي عند هذه النقطة أن تتنفس الصعداء، ويتوقف قلبها عن نبضه المتسارع كنبض عداء يركض في حلبة مفرغة.

لكن الشرطي المتوجس الذي ألف قصته الخاصة حينذاك سأل فجأة:

ـ من معك؟

ـ نعم؟! (كأنما لم يسمع جيدًا، أو أنه سمع جيدًا لكنه فوجىء إلى الحد الذي جعله يتعرق فتبدو دشداشته مبللة بشدة)

في تلك اللحظة كانت هي ذابت وانكمشت في عباءتها بشدة فيما الشرطي المتوجس يطرق نافذتها المعتمة ويحاصرها بأطياف قصته التي نمت في خياله واستبدت به.

ـ لو سمحت فيه شي؟

قالها الشاب باعتراض خافت، فيما الشرطي ينظر إليه بجمود وكأن سؤال الشاب لا يعنيه أو لم يصل إلى أذنيه.

أما هي فكانت دائخة وذائبة إلى الحد الذي لم يمكنها من فعل شيء، ولذا لا تعرف كيف امتدت يدها لتضغط على زر فتح النافذة ولا تعرف ماذا قالت له، لا تعرف سوى سيل التأنيب الذي ظل يطرقها من الداخل كأنما إزميل حاد الطرف يسقط على حجر فيهشمه.

ومع كل طرقة لإزميل التأنيب تتساقط صور البدايات، تلك الصور التي تتمنى لو أنها لم تكن، لم تتشكل في طيات حياتها، فتوصلها إلى هذه اللحظة التي كرهت فيها كل شيء أدى بها إلى هذا الموقف.

صور جعلتها الآن تكره نفسها وكل حياتها متمنية

لو أنها تغمض عينيها وتفتحهما لتجد نفسها تقول لكل صديقاتها أنها لا تحب هذه التصرفات وبأنها لن تفعل شيئًا خاطئًا ولن تخرج مع أحدهم غير حبيبها وزوجها.

يومئذ لم تقل شيئًا، وظلت تنصت لإحداهن وهي تروي المتعة التي حصلت عليها يوم خرجت مع شاب تعرفت إليه في محل للملابس الجاهزة، متخيلة أنها هي التي كان يغمرها بالقبلات ويمص نهديها ويعتصرهما، هي التي تتلوى بين ذراعيه بالحب وأنفاس اللذة والشوق.

كانت كرفيقاتها الأخريات في الجلسة إياها تنصت بلذة واضحة وكل واحدة منهن تكتب قصتها اللذيذة التي ستنتهي بانتشاءة غير محدودة وقبلة طويلة.

وعندما كانت تختلي مع وسادتها في الليالي القمرية الهادئة تنام على ظهرها مستعيدة تفاصيل القصة، قصتها، تشكلها وفق ما تحب لا وفق ما سمعت، تلهث وراء أمر لا تدركه في ظلمة الغرفة، تبحث عنه ولا تصل إليه وكلما رسمته في صورة أحدهم تناثر بعد برهة، حتى تغمض عينيها وتكتب القصة كيفما شاءت لتصل إلى ذروتها بعد حين عندئذ تنغرز أصابع يدها في الوسادة.

وهي الآن غرست أصابعها بتوتر في لحم فخذها، ولم تكن ترى، رغم أن عينيها مفتوحتان على كل ما يحدث. كانت غائبة في تفاصيل التأنيب والخوف، عندما استفاقت فجأة وهي ترى شابها يحرك السيارة بوجه أخذ الشحوب يغادره وتعود إليه مياهه مجددًا.

حركت رأسها بآلية تجاه الشرطي الشاب الذي امتطى دراجته وارتدى خوذته وانصرف بعيدًا عنهما.

ـ شو صار؟

قالت وهي تعيد ارتداء شيلتها وترتب من وضعية عباءتها، فيما ابتسم الشاب ملتفتًا إليها:

ـ ماشي بس انت سكتيه!

ـ ....

لم تفهم ماذا يعني كلامه لكنها أحست أن القصة انتهت هنا، وعليها أن تترك نقطة في آخر السطر، حيث تتنفس هي الصعداء وتفكر في وضع عنوان مناسب يجعل الفتيات رفيقاتها يحبسن أنفاسهن وهن ينصتن بإثارة هائلة إلى قصتها.

لكن الشاب لن يستوعب هذه النهاية نصف المفتوحة، ولم يكن يفكر إلا في النهايات السعيدة، تلك النهايات التي تنتهي إما في غرفة كالحة بفندق وضيع وإما في شقة عازب ارتضى أن يترك شقته لصديقه الشاب هذا فيما هو يقضي وقته في شرب عصير البرتقال بمقهى جوار البحر يكتب قصة مشابهة لهذه القصة تقريبًا.

خيانة!

لم أعد أشعر بأي رغبة في أن أكتب قصة صديقي الكاتب الذي عاش حياته يكتب القصص القصيرة المؤثرة ويحصد من ورائها المعجبات والمعجبين والأضواء والشهرة والاستضافات والرحلات العديدة إلى أماكن ومدن لم أحلم بها قط.

لم تعد تعتريني الرغبة إياها التي كانت قبل عدة أشهر عندما تم القبض عليه وتوجيه تهمة التحريض والاخلال بالأمن العام.

لا أدري حتى هذه اللحظة ما الذي غير توجهاته وجعله ينتقد الحكومة علانية وفي كل محفل ومكان ويطلق عبر صفحته في الفيس بوك ذلك السيل العرم من التهجم على رجالات الحكومة ونعتهم بأوصاف تقلل من احترام الناس لهم وتسخر بشكل كبير منهم، بل كان يدعو الناس علانية وبكل صراحة للتكاتف ضد فساد الحكومة، ضد ما أسماه بحركة البغاء الجديدة التي يراد للناس والمجتمع أن يتحولا إليها.

لم أكن أفهم ذلك التحول الهائل في شخصيته، هل كان بسبب انتشار «الفيس بوك» لدى الناس؟ هل بسبب الوضع الذي وصلنا إليه؟ حيث لم نعد نعيش كما كنا من الرضا؟ هل بسبب تسرب الفضائح العديدة لأفراد الحكومة الأزليين الذين لا يتغيرون إلا نادرًا كما كان يقول؟ لا أدري ما الذي حوله من شخص يحاذر في إعلان مواقفه ضد الحكومة أو بصيغة أدق في إعلان موقف واضح في نقد ما تقوم به المؤسسات الحكومية وكثير من أفرادها المعمرين في مناصبهم وكأنهم قدر علينا تحمله حتى يأتي غيره بعد أن يقوم عزرائيل بمهمته في يوم من الأيام.

كانت تلك جملته الأثيرة قبيل الأحداث التي توالت، وبرغم أنني أتذكر شخصيًا كيف أنه كان يهدي مجموعاته القصصية ورواياته وأعماله إلى بعض من هؤلاء الذين يشن حينئذ سيل تهكمه عليهم؛ بات في مرحلة لاحقة مثل معارض علني ينتقد ويشتم الحكومة ورجالها بصوت عالٍ لا هوادة فيه!

لم أسأله عن هذه المفارقة حتى عندما بت أشك في مصداقية ما يقول، معتبرًا أنه كان يحاول في مرحلة سابقة أن يمشي جنب الحائط، ولا يتحدث عن

المشاكل ومسببيها، بل أن يحسن التعامل معهم، أن يبتسم لهم ابتسامة ليست حقيقية ويوصل إليهم ما يحدث في الشارع وما يدور في رؤوس الناس من أحلام وطموحات عبر قصصه التي كانت تتخذ من هموم الناس مسارها الحكائي.

ربما اكتشف في وقت لاحق بأن كثيرًا من هؤلاء القوم لا يقرأون كتبه ولا قصصه ولا يهتمون بالقضايا التي يطرحها، ولا بأناسها المتعبين الكادحين المفعمين باليأس والتعاسة والهموم.

ربما،

لكنني أشك في ذلك، أشك في أنه تغير وبات يجهر بنقده لهذا السبب، إلى درجة الاعتقال في آخر المطاف، لأنه وقبل كل شيء وبالمختصر لم يكن معنيًا كثيرًا بكل القضايا التي يطرحها في قصصه، بل أكاد أقول بأنه لا يمتلك قضية ولا ما يشبه القضية.

بالمختصر كان إنسانًا يسعى لذاته ويعمل من أجل راحة نفسه، فكيف به تغير فجأة وبات مساهمًا أساسيًا في الأحداث واقتربت الناس منه وساندته في كل أطروحاته تقريبًا؟

في آخر حوار جمعني به قبل أن يعتقل؛ قال بأن

التغيير قادم، وبأن هذا الفساد مآله سلة المهملات، وبأن على الشعب أن يستوعب الدرس جيدًا، فلا يترك رقبته لأناس باعوا ضمائرهم في أول مزاد!

كنت أنصت وسؤال حار يعتريني: أين كنت قبل هذا اليوم؟ ألم تكن يا صديقي تكتب القصة تلو الأخرى من أجل جائزة ما، من أجل مبلغ يأتيك من صحيفة أو مجلة أدبية، من أجل فتاة تقول لك أنت رائع؟ كيف بت اليوم سياسيًا لا يشق له غبار، وتتكلم بكل جرأة عن المفسدين والفاسدين، عن الحكومة التي تصم آذانها عن حوائج الشعب تاركة إياهم للجوع والفقر وجشع تجار الطريق؟ كيف تحولت؟

فجأة نطقت بشيء آخر:

ـ ما أخبار زوينة؟

وكأنما ألقيت بحجر على وجهه، تضرج الدم فيه، ولم يحر كلمة واحدة يقولها! ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة لا أدرى ماذا تعني، لكنني كنت واثقًا أنني سأغير مجرى الحديث الذي أصابني بالملل، كلام لطالما كرره في جلساتنا الأخيرة، مع بعض التعديلات والإضافات التي لن تقدم ولن تؤخر في أنه يظل مجرد كلام لا يغني ولا يسمن من جوع.

تلك الابتسامة كأنما أعادته إلى مكان ما، لحدث ما، لفعل ما، ولكنني أيضًا لم أسأله ماذا يكون!

تراجع إلى الخلف، وأسند ظهره من جديد إلى المنضدة، مسح المكان بعينيه: كانت فتاة تدخل المقهى توًا برفقة شاب أسمر، النادلة تهيئ كوب العصير، نادل آخر ينقد زبونًا أجنبيًا ما تبقى له، ثم اتسعت ابتسامته وهو ينظر إلى عيني:

ـ أما أنت عليك سوالف، تو أكلمك عن وضعنا الراهن وتسألني عن زوينة؟ ايش تبالها؟ خلها ف حالها

ـ من زمان ما تكلمت عنها.

ـ انزين (صمت قليلًا ثم واصل) خلاص تزوجت.

ـ تزوجت؟ من متى؟ وكيف؟

ـ خلاص تزوجت والسلام.

ـ يعني ما تلتقوا؟ خلاص اللي بينكم؟

ـ يعني.

ـ شو يعني؟ تلتقوا ولا ما تلتقوا؟

ـ مرات.

ـ وهي متزوجة؟

ـ شو فيها؟ يعني هي الوحيدة المتزوجة اللي تطلع مع واحد غير زوجها؟

ـ صحيح؟

ـ ايوه، صحيح، وأمس كنا مع بعض.

ـ يا عيني!

ـ ارتحت الحين؟

ـ أيوه ارتحت.

وعادت ابتسامته ترتسم على وجهه، كأنما يستعيد لحظة ما، لحظة بعينها، عندما قال فجأة:

ـ تعرف إنه زوجها يشتغل ضابط؟

ـ لا تقول.

ـ ما أي ضابط؟

ـ كيف يعني؟

ـ يعني ضابط برتبة رائد في الجهاز.

ـ أي جهاز؟

ـ الجهاز، ما تفهم؟

ـ عجب تراك رايح فيها.

وعلت ضحكة كبيرة أطلقها حتى ظننت أننا بتنا تحت أعين الجميع، قلت له: لننصرف، ونهضنا.

لا أعرف لماذا اخترت زوينة بالتحديد لتكسر رتم الحديث «السياسي» الذي أغرقني فيه، لكنني وجدتني أعوم في بركة قاتمة من الغموض حول هذه الشخصية التي التقيها مرة واحدة لقاء ليس عابرًا تمامًا، إذ ما حدث فيه حدث أيضًا مع صديقي هذا كاتب القصص، مرارًا وتكرارًا.

مرة جاءني في سيارتها وكنت أقف في الشارع تحت شجرة تقيني حرارة الشمس، وعندما رأيت السيارة تتوقف جواري؛ تسمرت في مكاني كعمود الإضاءة القريب، أما هي فكانت منطلقة ولا تأبه لشيء. رمقتني بنظرة فاحصة سريعة، وبعد يومين جاءني اتصال من رقم مميز.

اكتشفت أنها هي، وأنها تطلب مساعدتي في أمر، ولا بد أن نلتقي.

لم أكن ساذجًا إلى الحد الذي سأصدق أنها تتصل بي لطلب المساعدة، ولم أسألها من أين حصلت على رقمي؟ لأنه بالمختصر سؤال سخيف، وغير مهم،

المهم هي في ذاتها ورغبتي التي توشك أن تنفجر لمجرد سماع صوتها.

كنت كالمخدر عندما التقيتها في شقتها الصغيرة، ولم أدر ماذا ينبغي أن أفعل أو أي حركة أقوم بها حينما دخلت تلك الشقة، كنت خائفًا من فكرة أن يكون صديقي موجودًا، لكنني كنت أضع في حسباني أنه لا بد أن يعرف بالأمر وأنها ليست بتلك السذاجة التي تحضر فيها رجلًا في وقت خلوتها مع رجل آخر!

حدث ما حدث،

وانصرفت،

ثم تواصلنا عدة مرات عبر الهاتف، ولم تخبرني في أي مكالمة أنها تزوجت، وأنا لم أخبرها بأني بت أعرف هذا الأمر، كانت القصة تعجبني هكذا، يعجبني أن تظل علاقتنا عدة مكالمات هاتفية تتحول في أحيان إلى حميمية ذلك اللقاء الوحيد الذي تم بيننا.

لم تتوقف تلك المكالمات حتى تم اعتقال صديقي، والزج به في السجن. حينئذ توقفت عن مهاتفتها، وأخذت أفكر مليًا في كتابة قصة صديقي الكاتب الذي اعتقل.

حتى جاءني اتصال منها البارحة:

«صدقني ستندم إن كتبت هذه القصة! ما أنت إلا كاتب فاشل تحاول بأي حيلة أن يكون لك مستقبل ومجد وإنجاز! أنت والفشل وجهان لعملة واحدة، وهذه بالذات جملة كتبتها في إحدى قصصك البائسة منذ سنوات!

هل صدقت نفسك بأنك بالكتابة تصبح مناضلًا؟ وهل صدقت أن بنات الناس قطعة قماش يمكن أن تتخلص منها في الوقت الذي تريد؟ ينبغي لي أن أخبرك بأنك لن تحقق في مشوارك شيئًا غير الندم والتعاسة، أنت من يستحق أن يكتب عنه، أنت من يستحق أن يكتب فيك، ولكن ما سيكتب فيك هو تقرير واحد لا غير: تقرير أسباب الوفاة! توفي في مساء كالح وكان يتعاطى الكحول بشراهة، وكان قلبه لا يتحمل! وفي ساعة متأخرة من الليل بين الثانية صباحًا والرابعة فجرًا انفجر شريان من شرايينه فمات متأثرًا بجراحه الداخلية!

سيكتشفون جثتك بعد أيام، ولن تصدر تعزية باسمك في الصحف، لأن ذويك ليسوا من القدرة بأن يدفعوا إعلانًا في جريدة!

هكذا ستموت،

تموت...

تموتين وأنت تخونين زوجك! ولن ينتبه إليك أحد أو يرضى بدفنك عاقل من أهلك! أما كتاباتك فإن مآلها أن تكون رمادًا تذروه الريح، إذ لن يقرأك أحد سوى المحكوم عليهم بالتعاسة الأبدية والموت والخذلان، وفي كل الأحوال فإن قصتك ستنتهي بفظاظة، لا لشيء سوى لأنك أردتها هكذا، عقيمة بلا معنى ولا قيمة، أما صديقي الذي خنته فإنه الآن يعد النص في شكل جديد كيفما يرد!»

خطو ثقيل

لو أنه يعرف الكلمة المفتاح التي إن قالوها لانتهى هذا التقرير، لو أنهما ينطقان بها لما كان وقته مهدرًا في تتبع كل حركة يقومان بها، أو بالأحرى كل كلمة ينطقان بها، ولو أنه يدرك لماذا عليه أن يتبعهما هما بالذات؛ لكان تخلص من هذا الصداع الذي بدأ يحاصره. هذا الصداع الأزلي المسمى بالكتّاب والمثقفين، الذي يواجه أي ضابط أمن، خصوصًا أولئك الذين يكون مصيرهم في الجهاز هو كتابة التقارير، ويكون عملهم أن يشرعوا آذانهم للخطو الثقيل الذي يخطوه مثل هؤلاء المزعجين.

مضى على التحاقه بالجهاز أكثر من ست سنوات، اثنتان منهما كانتا سنتين دراسيتين، مضتا سريعًا وبشكل مريح وغير مقلق لفتى كان يكثر من التغيب ولا يناله الحرمان أو الرسوب، بشكل جعل زملاءه يشكون فيه، ويتجنبه بعضهم، خوفًا على نفسه من الوقوع في أي شرك.

هو بذاته رافق آخرين لم يخطر على بال أحد من رفاقه أن يماشيهم، كبعض الشعراء والمتدينين الذين وإن كانت توجهاتهم متناقضة ولا تفضي إلى طريق واحد إلا أنهم يشكلون نقطة حمراء على الجهاز مراقبتها لئلا تتحول إلى ما يشبه الفتيل فتنفجر!

الشاعر لأنه ذو حساسية عالية، ولأنه قد ينطق بكلمة هي شرارة الانطلاق، والمتدين لأنه يربي في لحيته مخزن تدمير قد يصعب التحكم فيه إن فتح على مصراعيه.

كان عليه أن يراقب الطرفين، أن يستمع بشكل جيد وواع إلى كل كلمة، ثم يكتب تقريره الذي لابد أن يؤخذ بجدية أثناء التحليل، لأمرين أساسيين: الأول مرتبط به هو ذاته، إذ يصقل قدراته ويكشف إمكاناته في الدقة وسلاسة العرض والتحليل.

والأمر الثاني يتعلق بهؤلاء المزعجين الذين يولدون وفي دمهم يتربى الإزعاج ونزعة التدمير كما أخبره ضابط قديم في إحدى الدورات التي شارك فيها أول ما انضم إلى العمل في الجهاز.

كانت دورة مهمة، وربما كان هذا الضابط

المدرب هو سبب بقائه واستمراره وربما تحديد نوعية العمل الذي سيقوم به، لما أظهره من موافقة تامة وصبر متواصل وانتباه.

وهو كان نبيهًا ولا أحد من رفاقه يمكنه أن ينكر عليه هذه النباهة التي أهلته للحصول على وظيفة جيدة وبراتب فوق الممتاز كما أخبر زملاءه ورفاق الكلية في تلك «العزومة» التي أعدها لهم في مطعم الأوتماتيك في القرم.

يومئذ عقدوا حواجبهم جميعًا بشكل كاريكاتوري وهو يخبرهم أنها وجبة عشاء على حسابه لأنه حصل على عمل! وهم الذين كانوا ينتظرون دورهم في الحصول على وظيفة جيدة، الذين معدل أقلهم الجامعي كان أفضل من معدله، أفضل منه ربما بمراحل! كيف أنهم ما زالوا ينتظرون، وبعضهم لم يستخرج شهادة توقع تخرجه بعد، وهو يجدها بكل سهولة ويسر؟

ـ أنت تضحك علينا، أكيد (قال أحدهم).

ـ إيش هذي الواسطة الكبيرة اللي خلتك تحصل ع وظيفة قبلنا؟ (قال آخر).

فيما تساءل ثالث بعمق أكبر وبجدية:

ـ يا أخي أحيد الحكومة ما تسلمهم الرواتب إلا بعد شهرين أو ثلاثة.. تو انت هين اشتغلت؟

ابتسم دون أن يرف له جفن، وعاد بظهره إلى الوراء كمنتصر في معركة طالت، وها هي نهايتها دنت، ولم يجبهم بطبيعة الحال، إذ كان أحد الدروس المهمة أن يظل مبتسمًا دون أن يجيب عن سؤال يكون فخًا، وإن أجاب فعليه أن يجيب بما يقتضيه الحال، دون إعطاء معلومات مهمة أو مفيدة.

والإجابة الوحيدة التي يمكن أن تجيب عن تساؤلاتهم دون شك هي أن يقول لهم: انتوا ع بالكم راتب الحكومة هو اللي يخليني في ذي الحال؟ ما فيه أفضل من التجارة يا فاشلين.

تبادلوا الابتسام، وبلعوا إجابته مع أكواب عصير الكوكتيل الذي اتفق أن اختاروه جميعًا، ومضت ليلتهم تلك، وربما لم يلتقوا كثيرًا بعد ذلك، لكن المهم أن صورته في أذهانهم عززت مكانته، وجعلته النبيه الوحيد بينهم الذي ركل أعباء الوظائف الحكومية مفضلًا عليها المغامرة في عوالم الأسواق والتجارة.

ست سنوات مضت عرفه الجميع صاحب شركات وتجارة في كل شيء، من العلاقات العامة التي بدأها،

إلى التصميم والإعلان، إلى سوق العقارات والسياحة والفندقة، إلى محلات التدليك والأندية الصحية.

وفي ست سنوات كانت علاقاته تنحصر في أناس معينين، وقد يغادر أحدهم بعد حين بحسب الظروف، لكنه كان يركز على التقاء بعض المسؤولين، وبعض وجهاء البلاد. وحيث يسكن كان يؤدي الصلاة جماعة في المسجد الجامع، ويرتبط بعلاقة جيدة مع إمام المسجد وجيرانه في الحي.

قبل مدة، ربما سنتين أو ثلاث، أخذ يبدي اهتمامًا أوسع بحضور الأمسيات الأدبية والثقافية والفنية، وغالبًا ما يكون أول الحاضرين وآخر من ينصرف، مع أنه لم يكن يعرف أحدًا بعينه، أو أن له أصدقاء ورفقة حقيقية مع هؤلاء الكتاب والمثقفين والفنانين.

- من وين حلت عليك هذه الثقافة؟ ف حياتي ما شفتك ماسك كتاب تقراه، والحين باغنا نضيع وقتنا نحضر ذا العسق بو يمسيوه أمسيات شعرية؟!

قال له صديقه - بعدما أصر أن يحضر معه أمسية شعرية تقام بالنادي الثقافي -

كان لا يحب الشعر ولا الشعراء هذا الصديق،

وما زاد حنقه أن ذلك المساء كان يشهد مباراة مهمة لناديين أوروبيين ضمن دوري أبطال أوروبا، ولم يكن لديه من حل سوى أن يرافق صاحبه هذا في ظل أن سيارته في ورشة التصليح!

ـ لا تخاف، بتحصل تلفزيون هناك.

قال له مهدئًا، فيما أمال الصديق رأسه عاقدًا حاجبيه وقال:

ـ لو أعرف سر ها التحول... عن تكون تكتب تقرير وأنا ما عندي خبر؟!

الجملة الأخيرة جعلته يميل بالسيارة قليلًا، ثم سب سائقًا مر جواره:

ـ قبض شارعك الغبن!

التفت إلى صديقه، وقال له:

ـ ياخي الشعر ينمي الأحاسيس، خلي عندك شوية احساس وتراه المباراة ما بطير، بيعيدوا بثها بعدين، ثم احنا لازم ندعم ها المساكين، ونشجعهم....

انفجر الصديق تلك اللحظة في موجة ضحك: موه قلت؟ نشجعهم؟ منتج وطني واموه؟ وعلت ضحكته أكثر وهو يردد:

ـ ليكن شعارك: المنتج الوطني!

كانا وصلا إلى الدوار المفضي إلى النادي الثقافي، هناك في تلك التلة التي لا تبعد كثيرًا عن تلة أخرى يعرفها جيدًا.

الآن وبرغم أنه لم يكن يفعل شيئًا في تلك الأمسيات، ها هو يطلب إليه أن يراقب أحدهم، يراقب اثنين فقط، يتابعهما جيدًا، ليعد تقريره بشكل كامل ووافٍ عنهما، ولم يسأل نفسه لماذا عليه أن يفعل ذلك؟ لماذا هما دون غيرهما؟ ولماذا الآن، بعد الأحداث الأخيرة التي باتت تنبئ بأن تحركًا ما سيحدث ويقوده هؤلاء المشاغبون، أو الصداع كما يفضل دائمًا أن يطلق عليهما، تلك التسمية التي تعلمها من ضابط قديم في الجهاز تدرب على يديه.

ما أزعجهُ أنه لم ير ثغرة واحدة في حياة من يرقبهما، تلك الثغرة التي تعني أنهما ينظمان شيئًا سيئًا، وفي الحقيقة ومنذ أن بدأ يتابع الكتاب والمثقفين لم يكن يجد شيئًا ضد هؤلاء، يكتب تقاريره عنهم وعن أمسياتهم، بلغة تخلو من التعقيدات التي يكتب بها الكتاب كتاباتهم، وتعلم أن الدقة في الوصف، وعدم تحميل اللغة المكتوبة دلالات تفسر بطريقة خاطئة أو

تفسد القضية برمتها؛ هو الأمر الأساس والمهم في صياغة أي تقرير يكتبه، مرفقًا تلك التقارير بنماذج من كتاباتهم ومن أقوالهم فيما بينهم في الحانات والمقاهي والأماكن التي اعتادوا أن يذهبوا إليها.

هذان الكاتبان مختلفان كما أخبره مسؤوله في الجهاز، فهما يكتبان باسميهما الحقيقيين في سبلة عمان، ولا يجدان غضاضة في نقد الحكومة نقدًا لاذعًا، وترصد أي خطأ.

بمعنى آخر هما مزعجان بشكل هائل، ولم تستطع الأسماء المستعارة التي يديرها الجهاز في سبلة عمان أن توقفهما، أو توقف أحدهما، خصوصًا مع منطقهما القوي في المواضيع التي يكتبانها.

ومع أنه جمع معلومات كثيرة عنهما وعن غيرهما لكنه لم يجد ما يشي بأنهما يمكن أن يؤسسا تنظيمًا أو يشاركا في ما هو مضاد للأمن.

لذلك كان لابد من مراقبة متواصلة لهما، يذهب إلى الأماكن إياها التي يذهبان إليها: مقهى ستاربكوس في سيتي سنتر القرم، حانة الانتركون، قهوة العنوان. ولا يجد شيئًا مهمًا في كل تلك المتابعة، إذ غالبًا لا يتحدثان عما يكتبانه ولا ينتقدان الحكومة، بل يرتكز

حديثهما على الثقافة والأدب، والفتيات والتكنولوجيا ومباريات كرة القدم وأميركا وأوروبا والنظام العالمي الجديد.

يختار ركنًا في أقصى المقهى، يفتح الجريدة ويقرأ، يرتدي دشداشة نظيفة جدًا، تتماشى خطوطها مع ألوان مصره المرتب بشكل ممتاز والمطرز بتصميم خاص من النوع النادر والغالي في آن. أمامه على المنضدة الصغيرة جهاز الآيباد الخاص به وهاتفه الآي فون وآخر من نوع بلاك بيري. يتناول كوب القهوة وعيناه تطرفان وتذهبان في كل اتجاه. ينصرف عن الجريدة إلى جهاز الأيباد، ويرفعه ويضعه عدة مرات، يحول يديه تجاه هاتفه الآي فون أو البلاك بيري. يفعل أشياء متعددة في وقت واحد دون أن يكون لها معنى.

يدخل المعنيان بالمراقبة، يبتسمان فور رؤيته، تتحرك عيناه بعيدًا عن المواجهة، تزداد ابتسامتهما، يختاران مكانًا قريبًا منه، يذهب أحدهما ليأتي بالكاباتشينو، و............

.... ماذا لو كانا هما ضابطين في الجهاز؟ وبأن الأمر برمته

معكوس: المرَاقَب هو المتهندم صاحب الأجهزة المتعددة، والمراقِب هما هذان الكاتبان، اللذان لا يتواريان خلف أسماء مستعارة، وينتقدان بشدة وبمعلومات موثقة لا يدري أحد كيف لهما أن يحصلا عليها.

ثم حل صمت، يشبه الكآبة تمامًا، وجمدت حركات الثلاثة في المقهى، فيما الكاتب الآن حائر ولا يدري ماذا ينبغي له أن يفعل! ماذا يكتب! كيف يتم هذه القصة؟ يعود فيسأل نفسه: هل يمكن أن يحدث هذا؟ كتاب ومخبرون في الوقت ذاته؟ ثم ماذا يعرف هو عن المخبرين؟ لم يسبق أن التقى أحدًا من قبل وواجهه وجهًا لوجه. لكن ما يدريه؟ بما أنه لم يلتق من قبل أحدًا منهم فكيف له أن يعرف إن كان التقى أم لم يلتق أحدهم؟ كيف يعرف صفاتهم؟ طرائقهم في التفكير؟ في الحركة؟ في الحياة؟

أغمض عينيه، وعاد مخبره في القصة يحرك عينيه في كل مكان دون أن يكون لذلك معنى، كان الاثنان يواصلان ابتسامهما.

كان مشهدًا غبيًا بكل معنى الكلمة، فلا المخبر أوقف عينيه عن التحرك بلا معنى، ولا الكاتبان تبدلت

ابتسامتهما إلى وضع آخر! كان المقهى يشبه علبة مملوءة بما لا قيمة له، وكان الكاتب مستغرقًا في البحث عن مخرج، وكأنه واقع في زنزانة بلا باب، أوقعه فيها مخبر لا يعرف من يكون.

أو مخبرة...

شع في رأسه وميض ضوء، متذكرًا أن قصته بلا امرأة، وهذا الأمر يفقدها كثيرًا من البريق والحيوية والخفة التي تجعل القراء ينجذبون إليها. لذلك دخلت إلى المقهى فجأة وبلا مقدمات، وكانت ترتدي عباءة مفتوحة من الأمام إلى المنتصف، وبها زخرفة في ذيلها بلا معنى حقيقي وبلون رمادي مشع، كانت طويلة وعيناها واسعتين طرزتهما بكحل مغر، فيما حمرة خفيفة على وجنتيها، يبدو أنها وضعتها توًا. كان شق العباءة الأمامي يحيل العين إلى قميص أخضر مزركشًا، بدوره يخفي شقًا على هيئة الرقم واحد يظهر جزءه العلوي فقط مرغمًا العيون أن ترتكز هناك بالضبط، في تلك النقطة التي تهيج الخيال وتجعله خصبًا فجأة خصوصًا مع اكتناز واضح لا يمكن لعباءة ليست فضفاضة بالقدر الكافي لتمنع ظهور ذلك الاكتناز.

توحدت عيونهم وعقولهم على الإبحار في تلك

المنطقة بالذات، فيما هي أخذت مقعدًا وقابلتهم غير معنية بما يضمرون من خيال.

المخبر توقفت يداه عن العبث في أجهزته وفتح جانبًا من شفتيه كقط أبله، أما هما فتبخرت ابتسامتهما ولم يعد لوجهيهما معنى حقيقي، بل نسيا أن مخبرًا يجاورهما الآن، ويتحرى عنهما، ويراقبهما بشغف.

الكاتب ذاته أحس بالحرارة فجأة وهي تدخل في عمق المقهى، خارجة من عمق خياله، حرارة تزداد كلما شرع في وصفها المفصل، والتفكير في من ستكون في هذه القصة، محاولًا إعطاءها دورًا مهمًا في سياق الأحداث.

لكنه عقد حاجبيه وهو يراها لا تفعل شيئًا في مكانها سوى شرب عصير البرتقال، وتتحدث في هاتفها عبر سماعة البلوتوث المختفية خلف «شيلتها» ذات الخطوط الخضر في حوافها.

لم تخلع نظارتها الشمسية الكبيرة المرصعة بقطع ألماس ليست أصليّة في كل الأحوال، وظلت تثرثر في هاتفها ثرثرة نساء عاديات ليس لهن أهمية في الواقع.

يكره هذا الشعور، شعور الانهزام، شعور الخيبة، عندما لا يجد أن وضع شخصية كهذه يفيد، بل

كان يدرك أنه بدخول هذه المرأة التي تفيض بالإغراء يفسد المبتغى من قصته، ويجعلها عملًا ناقصًا، ويجعل شخوصه تقع في حيص بيص، وعدم إدراك لما ينبغي لهم أن يفعلوه.

هو الواقع فعليًا في ذلك الحيص بيص، خصوصًا عندما قرر أحد الكاتبين النهوض من مكانه والتوجه إليها مباشرة والابتسام ثم يضع ورقة صغيرة دون فيها رقم هاتفه. تصرف أزعج زميله الآخر لأنه باغته، فيما المخبر فتح فمه لأنه لم يفهم لماذا حدث هذا الأمر، وعقد حاجبيه متسائلًا عما ينبغي أن يفعله في هذه اللحظة.

الأمر برمته مربك الآن، فالكاتب مشتت وضائع ولا يعي ما يفعل، كل ما يفكر فيه هو فتاته المثيرة التي دخلت فجأة في المقهى، وما إذا كان من الممكن أن تكون هي المخبرة التي ستوقع الكاتبين.

الفكرة الأخيرة جعلت المخبر يحتج ويجمع أشياءه وينصرف، نادمًا على كل لحظة من اتباع إرشادات كاتبه، مدركًا أن الكتّاب لا أمان لهم، وبأنهم يمثلون الصداع الحقيقي كما أخبره أحد مسؤوليه قبل زمن.

نهض، وخرج دون أن ينتبه له الآخران، وعندما انتبه الكاتب إلى ذلك الخروج المبكر من سياق القصة.

في اللحظة التي خرجت فيها المرأة المثيرة، أيقن المشكلة الحقيقية التي أوقع فيها نفسه، وبأنه في ورطة كبيرة، لا يمكن لأحد أن يخرجه منها سوى أن يتوقف عن إكمال النص.

كانت الأفكار تتماوج في رأسه، وأحس بصداع مفاجئ، ثم فكر أن الحل هو في الخروج إلى الشارع ومشاهدة الناس والسيارات والطقس المتبلد.

ترك الكاتبين في مكانهما بالمقهى، وكانت فكرة طرأت في رأسه: سيخرج، وسيجدها ارتدت ملابسها الداخلية فقط، مرتمية كقطة على الكنبة الخارجية تتابع فيلمًا على شاشة كبيرة وتتحدث إلى أحدهم في هاتفها. سيكون مملوءًا بالرغبة، وسيحذف من رأسه فكرة أنها تعرفت إليه بنية إيقاعه في فخ، جراء ما يكتبه من أعمال، ولم يكن معنيًا في الأصل بكل ذلك، كان معنيًا بأمر واحد فقط: أن يرتمي جوارها ويسند رأسه إلى صدرها المتكور وينام!

حفرة لزجة

لا الشخصية ولا كاتبها كانا يدركان أنهما سيسقطان معًا، يسقطان في حفرة كهذه لزجة مقرفة كما أسماها الكاتب ذاته! وهو يصف حال شخصيته عندما وجدت نفسها في تلك الحفرة، حفرة السعير، هكذا حادث نفسه عندما ألقي القبض عليه قبل أسبوع.

«حفرة من سعير» بل هي «لزجة» وتثير القشعريرة في الجسد، لا للبرودة الهائلة التي ألفت فيها الشخصية ذاتها، ولا للقضبان الحديدية الصلدة التي باتت تشكل المعلم الأساسي في ذلك المكان الجديد الذي راح الكاتب يتخيله ويصنعه ويرتبه لشخصيته.

بل لأنها لزجة وحسب!

تلك اللزوجة التي لا تجعل المرء يتقيأ مرة واحدة فقط، بل يخرج كل ما في جوفه حتى يصيبه هزال شديد، ويبدأ لونه بالتلاشي والجفاف، جفاف لا يمكن لمن يعرفه بعد ذلك أن يتعرف إليه إلا بعد مشقة وجهد جهيد.

هكذا كانت تلك الكلمات القاسية تنساب على أوراق الكاتب وهو يضع شخصيته في تلك الحفرة اللزجة، تلك الشخصية التي لم يضع لها اسمًا بعد.

الأسماء غير مهمة، ما يهم أن يجرب شيئًا غير التدريس، غير حياته الحالية، غير ما هو عليه الآن من رضا وقبول لهذه الحياة التعيسة التي بتنا جميعًا نعيشها، وأنا على استعداد لأن أبذل كل الجهد من أجل أن يكون بطلًا في تلك الحفرة.

هذا ما قاله الكاتب وهو يرتشف قهوته، فيما النادل يقف أمامه ولا يعرف ما إذا كان الحديث موجهًا إليه أم أنها حالة من حالات الكاتب الكثيرة التي اعتادها هذا النادل.

وبدأ النادل يدرك أن لدى الكتاب ما يشبه الانفصام عن الحياة والواقع الذي يعيشونه، ومع الوقت لم يعد يستغرب شيئًا قد يقوم به هذا الكاتب، خصوصًا بعد أن تشكلت علاقة بين الطرفين، علاقة ليست بالصداقة حتمًا، إلا أنها أمدت الطرفين بكيمياء خاصة فيما بينهما، وعندما يقف النادل أمام تلك المنضدة التي عادة ما يختارها الكاتب؛ كانت تمر لحظة لمعان في عيني الكاتب، ثم ينبري يخط أوراقه.

لوهلة اعتقد أنه مريض، ولكن عندما جاوبه الكاتب بأنها لحظة الإلهام توقف عن أي اعتقاد آخر، مدركًا ضرورة الانصراف وليكتب الكتب دون إزعاج، ولم يكن النادل يدري أن الشخوص كانت تلح على عقل هذا الكاتب، تطالبه بأن يكتبها بشكل يكاد يكون متسارعًا في تصور الأحداث إلى الدرجة التي يتهيأ له أنه يرسم لوحة فنية، هذه اللوحة مشرئبة بالأدكن من الألوان، مملوءة بالخطوط الحادة الصارخة، الضاجة بالتوتر والتشابك واللامعنى في بعض الحالات.

لوهلة كان يبدو النادل مثالًا جيدًا لاقتباس حياته ووضعها على الورق، والنادل ذاته ظن أن هذا ما يمكن أن يحدث، إلا أن الكاتب لم تلمع في ذهنه هذه الشخصية، بل شخصية أخرى تقف الآن منتظرة المخرج، تنظر حلًا لمأساتها وهي تنظر إلى أعلى، لربما جاء الكاتب ومد حبله إليها لتخرج لضوء القمر، ولم تكن تدرك أن الذي بجانبها منكفئ على ذاته ما هو إلا الكاتب ذاته.

مع ذلك، وعودة إلى مرحلة الكتابة الأولى، كان الكاتب اقتبس من حياة صديق له يعمل مدرسًا للغة العربية، كان كلما التقاه تحركت تلك الدودة في رأسه،

دودة الكتابة، وبأن صديقه هذا هو الملهم الحقيقي لتشكيل شخصية قصته.

الشخصية لم تعترض، ليس لأنها خانعة، بل لأنها تعبت من التكرار الذي كان الكاتب يرتكبه في كل مرة وهو يرسم شخصياته.

من ذلك التكرار الذي ينبغي للكاتب أن يشطبه هو أن شخصيته الحالية هي مدرسٌ لغة عربية. وهذا ليس صلب التكرار. بلغ سن الواحدة والثلاثين ولم يتزوج بعد. كان يحلم بالزواج من مدرسة لغة عربية مثله أحبها أيام الدراسة في الكلية. للأسف الشديد تأخر كثيرًا في التقدم إليها لأنه لم يكن قادرًا على أن يقدم لأهلها المهر المناسب الذي أخبرته هي بأنه لن يقل عن اثني عشر ألف ريال دون الطلبات الأخرى التي ستطلبها العائلة الكريمة.

هي ـ فتاته مدرسة اللغة العربية ـ لم تستطع أن تقف مرة سادسة في وجه أبيها قائلة له بأنها لا تفكر في الزواج في الوقت الراهن، خصوصًا أن الشاب الذي طرق باب بيتهم كان «كاملًا» و«ما شاء الله عليه، رزة وهيبة!» هذا ما قاله الأب لها مبتسمًا ذلك الابتسام الذي يضمر رضا عارمًا من قبله عمن تقدم لخطبتها،

وهو أمر أكدته والدتها أيضًا عندما رأت الشاب يخرج من باب مجلس البيت بطوله الفارع وجسده المتأنق ووجه الحليق، قائلة لها: يا بنتي ما جاية تحصلي واحد مثله في حياتك البر!

كان ضابطًا برتبة رائد في سلاح الجو، تخرج في كلية العلوم قبل عدة سنوات، وهو ابن عقيد في الشرطة و«ما فيه عيب واحد» أكدت الأم مرة أخرى وابتسامة مشجعة تشع على وجهها.

هكذا تزوجت فتاته، حبيبة أيام الدراسة، رفيقة أحلام سنوات لم تثمر إلا سرابًا يتلاشى في فضاء حياته الآن، تزوجت ولم يسمع عنها أي خبر بعد ذلك، لربما الآن أصبحت أمًا ولديها أولاد ثلاثة، بنت وولدان اثنان جميلان، ولربما تركت التدريس لتصبح موجهة أو مديرة مدرسة، أو أنها أكملت دراستها وحصلت على شهادة الماجستير في الآداب كما كانت تحلم معه، ذلك الحلم الذي تبدد في حياته هو مع الأيام، ولم تعد علاقته بالأدب علاقة متينة كما كانت من قبل، بل لم يعد يهمه أن يتعرف إلى الكتابات الجديدة كما كان يفعل أيام الكلية، ولم يعد مهتمًا بأن يعرف شيئًا عن فتاته التي غادرته إلى رجل آخر، برغم إمكانية حصوله

على بعض المعلومات، ولو من خلال العمل المشترك الذي يجمعهما.

حتى القصائد التي كتبها غزلًا في من غادرت حياته قرر أن يتلفها، وكما قرر أن لا يكون مهتمًا بالأدب كثيرًا؛ كان قرر أن يترك الشعر لأنه فقد نبع الإلهام كما قال لنفسه ذات حزن!

نظر إليه وهو يكتب، عاقدًا حاجبيه، متمنيًا أن ينتبه إلى أن قصة الحب هذه مكرورة في قصص كثيرة، وقد لا تقنع أي قارئ، إنها ليست كالفتاة صاحبة السيارة ذات الدفع الرباعي، ولو أنه وضع تلك الفتاة هنا ـ مع بعض التحويرات ـ لكن ذلك ممتعًا.

نظر إليه وهو يرى ذلك الحزن الكبير كنهر فاضت جوانبه، يلهمه استمرارية في سرد قصته هذه، المفعمة بالأسى والخيبات، قصة الفقد وتبدد الأحلام في فضاءات الحياة.

من ذلك الحزن لابد أن تبدأ الحكايات والقصص المهمة، قال لنفسه وهو يرفع كأس الهوت شوكليت إلى فمه، ثم ينطلق إلى شخصيته وهي تقرأ ما كتبه مدرس حانق على جداره في الفيس بوك:

> «ياخي، أبسط الأشياء ما نحصلها، شوف عندك، قلم نكتب به ع السبورة ماشي، دورات ماشي، مكافآت، حوافز، ماشي البر، لازم نحل هذا الأمر»

في واقع الأمر؛ قرأ الكاتب تلك الكلمات فعليًا على جدار أحد المدرسين الذين أضافوه في الفيس بوك، ولم يكن يعرفه تمامًا، لربما كان أحد الأصدقاء القدامى الذين جرتهم أقدارهم إلى أن يكونوا مدرسين.

كلمات كانت محرضًا إضافيًا وكافيًا ليفكر بجدية في كتابة قصة قصيرة بطلها مدرس، هو ذاته صديقه أيضًا، غير مدرك في لحظة أنه سيقع في «الحفرة» إياها التي أوقع فيها شخصيته، أو أن يتشارك في الكثير من أفكارها، ولاحقًا مصيرها!

ومن الطبيعي جدًا أن تتخالط تلك الأفكار: هل كانت هي أفكار الكاتب؟ أم أنها أفكار الشخصية؟ أم أنها أفكار الصديق مدرس اللغة العربية؟ أم أنها أفكار أحد أصدقاء الفيس بوك أو التويتر الذين أضافوه ولا يعرفهم تمامًا.

لكن الكاتب كلما توقف كان يفلتر ما كتبه قبل أن يحفظه بشكل نهائي ويذهب إلى شقته لينام، يعود إلى

التصور الذي وضعه لشخصيته، وما ينقصها، ويغمض عينيه برهة ليفتحهما على معلومات جديدة يجد أنها من الضروري أن تضاف، تلك المعلومات يستحضرها من صديقه المدرس:

كان اضطر غير باغ ولا عاد إلى أن يقترض من البنك كي يشتري أرضًا جديدة عوضًا عن الأرض التي باعها من أجل علاج والده في تايلند بعد أن عجزت المستشفيات الحكومية أن تفعل له أي شيء.

مرة أخرى تنظر الشخصية عاقدة حاجبيها وهي ترى ما يمكن تسميته بإسقاط الواقع السياسي على العمل الفني بشكل يبدو مخلًا في بعض الأحوال.

باع الأرض وانطلق إلى تايلند، وبعد أسبوعين من الفحوصات أخبروه بأن والده مصاب بالزائدة الدودية، وليس بسرطان الكبد كما كتب في الأوراق الرسمية التي أخرجها بصعوبة من المستشفى.

عندما عاد وبعد شفاء والده، طالبه الوالد بأن يتزوج كي يرى أحفاده. وقال له: «يا ولدي أنا ما عارف لين متى بعيش، وأريد أشوفك متزوج، وما تسوي كما أخوك الصايع»

أخوه الذي يكبره بعامين كان دنجوان عصره، لا

يفوت فتاة تعجبه إلا أن غازلها وعاكسها حتى تقع في شباكه، وكانت النساء سبب دماره كما يتذكر أخوه المدرس: كان يعمل مندوب علاقات عامة في شركة عامة، وفي إحدى المرات دخلت الشركة امرأة بدت له مثيرة، دخلت مباشرة إلى مكتب المدير العام صاحب الشركة، ولم يسبق له أن رآها من قبل. سأل عنها، فقال له المنسقون: «هذي صاحبة المدير، يعني ما ترومها»

«صاحبته ما زوجته!» وصمت.

رأى الأمر سهلًا من وجهة نظره، ما دامت هي مجرد صاحبة المدير وليست زوجته، فلا خطورة تذكر، ولابد أنها ستخرج معه، وأنها تواعد أكثر من رجل.

انتظرها خارج الشركة، خرجت، تبعها، بدأ مسلسه الأثير.

إلا أنه وقع في الشرك، عندما وقع لها شيكًا لم يستطع سداده! كانت صاحبة المدير، لكنها لا تخرج دون فائدة!

سجن، وعندما خرج سافر إلى دبي.

«ما يهمك يا الوالد، بس لازم أبني بيت» هكذا

أخذ مدرس اللغة العربية قرضًا واشترى أرضًا ليبني البيت، تاركًا أمر اختيار الزوجة لأمه، لتختار لابنها من تجدها مناسبة.

في مساء من المساءات قبيل موجة الاعتقالات الأخيرة، كان قرر أن يسقط شخصيته في «الحفرة» التي كانت اعتقالًا تعسفيًا عقب موجة من الاحتجاج الشديد من قبل قطاعات المدرسين والأطباء وعمال المصانع والعاطلين عن العمل، على سوء الأحوال وعدم احترام الحكومة لكلامها بتحسين المعيشة في البلاد:

> كانت الحفرة سعيرًا هائلًا، مملوءة بالشوك والصديد، وكان هو لا يعرف كيف يتصرف أمام موقف كهذا. السجان يدخن سيجارته في الخارج، والظلمة تكاد تفتك بالسجين. ظلمة بلا حدود، وحفرة ضيقة ولزجة لا تتسع لأي أحد! عليه أن يؤدي احتياجاته واقفًا، وأن يعتاد التجاور معها ومع رائحتها اللزجة المقرفة، عليه ألا يسأل لماذا هو الآن هنا؟ لماذا تم اعتقاله بتلك الطريقة القاسية الخارجة عن إطار القانون؟ ما تهمته؟ لكن الأهم هو أن يتكيف مع الرطوبة المزعجة الباردة، مع البول، مع الهراء المقزز. عليه أن ينام واقفًا كشجرة يابسة في الصحراء وبلا ثمر...

يتذكر جيدًا أنه أراد إعطاء أقسى درجات القتامة للسجين، رغم أنه لم يجرب السجن من قبل، كان يريد أن يتفاعل مع الأحداث بطريقة تفيها حقها بشكل جيد، خصوصًا أن احتمال أن يسجن البعض واردة، ولاسيما بعد أحداث المعلمين في الرستاق.

شحن يومئذ المعلمون المحتجون الواقفون تحت أشعة الشمس الساخنة يطالبون ببعض الأشياء التي يرونها حقوقًا لهم، شحنوا في حافلات سوداء قاتمة ومضوا إلى المجهول.

يومئذ انتفضت الشخصية في ذهنه، وهكذا قرر أن يكتب عن مدرس اللغة العربية، صاحبه، أن يوثق سيرته ويضيف إليها أحداثًا لم يشارك فيها ذلك الصاحب فعليًا، كأن يكون شارك في تلك الوقفة الاحتجاجية، فيما هو كان استأذن مدير المدرسة ليرافق والده إلى مستشفى الرفاعة لمتابعة حالته الصحية عقب العملية الجراحية.

كان يمكن أن يكون هناك، لكنه كان مشغولًا في أيامه تلك بتشطيبات بيته، مشغولًا بوصايا والده الكثيرة، وضرورة الإسراع في الزواج ممن اختارتها والدته له، ولم يكن متفرغًا لمتابعة ما يحدث حوله من أحداث.

شخصية الكاتب في القصة اقتيدت ذلك اليوم أمام مرأى من طلابها إلى تلك الحافلة السوداء المحصنة، التي حملته مع بقية المدرسين إلى مكان قال بعضهم: إنه سجن الأمن الحصين، الذي لا يمكن معرفة مكانه ولو بالتخمين! وقال أحدهم: إنه سجن سمائل، ولكن في مكان خاص، وفي زنازين مفردة. آخر ذكر بأنهم اقتيدوا إلى حصن الجلالي.

إنه المكان الأكثر سوءًا في ذاكرة الكثيرين، حتى الشخصية ذاتها وهي في تلك الحفرة اللزجة ارتعدت عندما كتب اسم هذا السجن على صفحات أوراقه، وأيضًا نظرت ببعض الأسى، لأنها فعليًا أدركت في تلك اللحظة أن الكاتب لن يستطيع أن يتم هذه القصة، ولن يستطيع أن يكمل وصف السجن، أو الحفرة، ولا أن يفعل شيئًا سوى مشاهدة شخصيته تتعذب.

الشخصية ذاتها لم تدرك أن التالي هو سقوط الكاتب معها في المكان ذاته، حدث ذلك في اليوم الذي كان يحاول فيه رسم صورة زنزانة الجلالي السوداء المظلمة ذات السوء العظيم، في ذلك اليوم كانت هناك حملة اعتقالات موسعة، طالت عددًا من الكتاب وشباب الفيس بوك والتويتر والمدونات.

كان يستعد على ما يبدو لتتمة القصة، وفي مكانه الأثير، في كوستا كوفي الشاطئ، عندما حدث كل شيء فجأة ودون أي مقدمات أو إشارات سابقة وواضحة بأنه مطلوب بتهمة ما.

في عصر ذلك اليوم جاء ثلاثة يرتدون ملابس مدنية، يعرف أحدهم، ووقفوا أمامه، قالوا له: تحرك، هيا.

بكل هدوء وقف، وابتسم، وقال كلمة واحدة: طيب!

ثم مضى معهم.

وليست هناك أية أخبار عنه منذ تلك اللحظة التي مضى فيها معهم، ولربما خال أنه يشاهد مشهد الاعتقال، اعتقال شخصيته على الورق، لذلك لم يكن مباليًا بشيء.

وها أنا الآن، أسرد لكم قصته، كنت على موعد معه، بعد ساعة من الاعتقال، وكان أوصى النادل في المقهى بأن يسلمني حقيبة أغراضه التي استطاع أن يسلمها من أيديهم، قائلًا لهم بأن النادل صاحبه يمكن أن يأتمنه على أغراضه.

عندما فتحت الحقيبة، وجدت دفترًا أزرق متوسط الحجم، أدركت أنه يكتب فيه مسودات قصصه وأعماله الإبداعية ومقالاته، وأدركت أيضًا أنه يريد أن أكمل له القصة، كي تقرأوها الآن....

فراشات الغيوم السود

أصابني الوجوم دفعة واحدة، واحتل تفكيري القلق المتواصل بشأن عبد الرحمن.

لا أعرف لماذا منذ أيام وأنا أفكر فيه؟ لماذا يطل علي هكذا في رأسي، مصابًا بالوجوم والإحباط والخوف هو الآخر؟

حاولت أن أفتت صورته، أمزقها من خيالي، أدفعها لتتبدد كغيمة في نهار صيفي، ولم أستطع.

كانت صورته تتكاثف أكثر فأكثر في رأسي، وكلما كنت أجيء لأنام؛ اتضحت تفاصيل وجومها وخوفها أكثر، وحضرت تفاصيل جديدة في ذلك الوجه العابس غير المرتب والحزين بشكل لافت!

وكلما وضحت تلك التفاصيل وبدا خوف عبد الرحمن أكثر حضورًا؛ غامت خلفيتها وبدت تمحي منها الألوان لتطل رمادية لا أحبها مطلقًا وتسيطر على بقية المشهد في تلك الصورة، فيعاندني

النوم، ولا أستطيع إلا أن أتقلب على سريري كمن يقلى في إناء على نار حامية.

ها أنا لا أقبض على لحظة نومي فأبدو شاحبًا مرهقًا وكأن أمرًا جللًا حدث لي، ولن يصدق أحد لو أخبرته أن كل هذا يحدث بسبب عبد الرحمن الشخصية التي كتبتها في أحد نصوصي، لن يصدق أن كل هذا التعب والإرهاق مرده إلى صورة حزينة يطل فيها عبد الرحمن، خارجًا من سعادته في ذلك النص إلى حياتي الحالية.

سيضحك أي واحد يستمع إلى هذه القصة وسيقول: كم أنتم مهبولون أيها الكتاب! تكذبون الكذبة وتصدقونها قبل أي أحد آخر!

لذلك عليّ أن أقول بأن مغصًا ما هو ما يفتت لياليّ لدرجة الإنهاك وبأنني أنتظر موعدي مع طبيب اختصاصي بعدما فشلت المهدئات وأدوية المستشفيات الحكومية في إرجاعي إلى سابق عهدي.

كل من سأخبره بهذه القصة الملفقة أيضًا سيتعاطف معي وسيعزيني بشتم المؤسسات الحكومية التي لا تتورع عن الإمعان في إهدار صحة الإنسان ببلادتها وعدم مسؤولية العاملين فيها، خصوصًا تجاه

الكتاب أمثالي الذين يمثلون أهمية كبرى في تاريخ أممهم!

وسأقول لمن سيقول هذا الكلام: لا بأس، لا أحد فوق الأنظمة! والانتظار قليلًا من الوقت خير من لا شيء! سأكون كحجتُ عدة مرات وأنا أقول تلك الجملة الإنشائية عارفًا بأن محدثي سيرد بجملة إنشائية أخرى: السفلة وحدهم فوق الأنظمة والقوانين، ولذلك الفساد أغرق البلاد!

لا يعلم هذا الإنسان أنني أكذب عليه وأستدر تعاطفه معي، ولو حكيت له القصة الحقيقية لشتمني وولى مغاضبًا ولم يعقب!

هه، هل عليه أن يصدق قصة عبد الرحمن المختلقة؟ أن يتعاطف معها؟ أن يتخذ موقفًا مساندًا لعبد الرحمن؟ وخصوصًا لو قرأ قصته وهو الذي أغرق في الفساد والضياع بمضاجعة فتاة دون رابط زوجي؟!

سيستمتع حتمًا بالقصة متخيلًا نفسه من رافق تلك الفتاة ومارس معها الجنس، لكنه أيضًا وبالحتمية نفسها سيرجم عبد الرحمن بأسوأ الشتائم وأقبحها لو كان هذا العبد الرحمن إنسانًا حقيقيًا وليس كائنًا من ورق!

إيه يا عبد الرحمن!

وحدي عليّ أن أتعاطف معك، وأن أفكر في كيفية إخراجك مما لا أعرفه حتى الآن، فالصورة كما ذكرت تطل غائمة رمادية، وحدي عليّ أن أقلق وأن أفتش عما يزيح عنك ثقل تلك الغيوم السود، التي تتلبد في سمائك وسمائي!

ماذا حل بك؟ ولماذا تعود إليّ الآن وقد قاربت إتمام مشروعي السردي الجديد؟ لماذا كل هذا الأرق والحزن والخوف؟ هل اتصلتْ بك تخبرك بأنها حملت منك؟ وبأنك مطالب الآن بأن تتحمل كل المسؤولية تجاه خطيئتك الفادحة، وأن تتزوجها كي لا تقع هي في المشكلات ولا أنت أيضًا، لأنك إن رفضت طلب الارتباط الشرعي فإنها ستدلهم عليك! ومهما أنكرت فإنك واقع في الفخ لا محالة، واقع في ورطة أفعالك السيئة وعدم انتباهك للأخطار المحدقة بك وأنت «تفعلها».

ويا لسخافة القصص التي تنتهي بالوقوع في المحظور، ذلك الذي يحيل أبطالنا الورقيين إلى أناس سذج يعيشون الحياة الاعتيادية المجردة من تلك المتعة التي لا يحصل عليها سوى قلة من الناس!

لكني لا أظن أن هذه هي مشكلتك التي جعلتك

تعود إليّ بوجهك الطافح بالكآبة المفرطة والحزن الذي جعل لياليّ قلقة مؤرقة، لا أظن أنك تواصلت مرة أخرى مع تلك الفتاة لأسباب كثيرة أقلها أنك لن تجد العذر المناسب الذي يمكن به أن تتملص من عملك المدرسي، إضافة إلى أن فرصًا كثيرة سنحت لك أن تعاود الاتصال بها عندما حظيتَ بورش عمل أقيمت بمسقط قريبًا منها جدًا أو بمهام مدرسية أوكلها إليك المدير أو حتى زياراتك لمسقط في بعض العطل.

كنت تتصل برقمها فلا يأتيك رد أو إجابة، وكنت ترسل الرسائل الهاتفية الحميمة المشتاقة ولا يأتيك رد منها، بالمختصر كنت بعد مدة من الزمن استوعبت أنها لم تعد تريدك، وبأنها تتجاهلك ولا تريد أي تواصل معك.

صحيح أنك شعرت لوهلة بعدما يئست من إمكانية أن تجيب عليك؛ بأنك لم تقنعها في ذلك اليوم الوحيد الذي جمعك بها على سرير ذلك الفندق ذي النجمة الوحيدة على أطراف الخوير، وبأنها لا تريد شخصًا يتعلم ويحبو توًا في فنون السرير! لكنك تناسيت ذلك متذكرًا متعتك في تلك السويعات النهارية البهية التي جمعتك بها قبل أمد، وأما الآن فلا أدري

ما حل بك؟ لا أفهم كيف أنك مصاب بكل هذه التعاسة؟

مر وقت طويل منذ أن كتبتك في تلك القصة، حتى أني نسيت كيف جئت إليّ يا عبد الرحمن ودخلت قصتي تلك، إلى أن كانت ليلة البارحة عندما كنت أحاول النوم ولا أستطيع جراء الأرق المتواصل بسببك.

فجأة وبلا مقدمات تذكرت كيف تعرفت إليك وأين؟

تذكرت في لحظة صديقًا لي رمته أيامه بعد الجامعة ليكون مدرسًا، ومع أنه كان فرحًا بمهنته هذه عكس كثير من زملائه الذين تخرجوا معه؛ إلا أنني كنت أشفق عليه من هذه المهنة الصعبة، وكنت أرى أنه يحرق نفسه فيها بلا مبرر، ولذا كلما التقينا كنت أسأله: هل أنت مرتاح في عملك؟ يرد بابتسامة الواثق: ليس هناك ما هو أجمل من عملي.

ها هو اليوم أصبح مشرفًا تربويًا مهمًا ونال درجة الماجستير في الأدب العربي ويستعد لدراسة الدكتوراه، إنه قصة من القصص التي لم أكتبها بعد، وربما لن أكتبها في مشروعي الحالي المشرف على

نهايته، وهو الذي أخبرني عنك يا عبد الرحمن، في إحدى جلساتنا بمقهى الكون قبل أن يغلق. كان يحكي عن مغامرات المدرسين وحكاياتهم في المدرسة، وعن الطلبة ومشاكلهم، والمدير والإدارة وعوالمها العجيبة.

ولأكن دقيقًا، هو لم يخبرني عنك بالضبط، بل في اللحظة التي كان يتحدث فيها عن المدرسة وما فيها من شخوص ومن حياة ومن حكايات، في تلك اللحظة وهو يرتشف فنجان القهوة التركية، في ذلك النهار الخميسي البعيد، التمعت أنت هناك، وخرجت في اللحظة التي ضحك هو فيها، ووضع فنجانه على المنضدة أمامه.

عقدت حاجبيّ وابتسمت، وكانت فتاة تمر جوارنا وتتوقف هنيهة قبل أن تدخل إلى محل للعباءات. لمحت بنطالها الجينز، فلمعت فكرة القصة التي سأكتبها، وكنت أنت جالسًا أمامي تنظر إليّ بلا معنى، فيما صورتك النهائية تتكامل، وصديقي المدرس يسترسل في سرد حكاية حبة الخال التي أرعبت خليفة صديقك مدرس الرياضيات، تلك الحبة التي اكتشفها في نهد صديقته الجديدة، وبأنه لم يستطع أن يقبلها إلا وتخيل

تلك الحبة وهي تتضخم وتكبر ثم تنفجر في وجهه! فيغمض عينيه ويعف شفتيه وينقلب في اتجاه آخر!

وكلما أوغل صديقي في حكايته كنت أنت مكتمل الصورة، تنصت باهتمام إلى القصة، ويتنامى في داخلك حسد تجاه خليفة ذي البطولات النسائية الكثيرة، فرحًا بأنه يخاف حبة الخال النابتة أعلى من حلمة نهد صديقته الأيمن، متمنيًا أن تنفجر في وجهه فتنتهي بطولاته التي تكاد تشكُّ فيها!

لكن يا عبد الرحمن لا تنس أن خليفة هذا كان محرضًا كافيًا لك كي تبحث عن مغامرتك الأثيرة، وبرغم أنها مغامرة وحيدة إلا أنك أعطيتها كل حواسك، واندمجت فيها بكل تفاصيلك، متشربًا كل ذرة من لحظتك مع فتاتك، حتى عندما نظرت إلى نهديها متأكدًا أن حلمتيها لا تجاورهما حبة الخال إياها أغمضت عينيك وغطست فيهما كسباح يتعلم فنون السباحة لأول مرة!

كنت في أعماقك خائفًا أن تفقد تفصيلًا واحدًا من تفاصيل هذه المغامرة، خائفًا من أن تبدو أقل من خليفة، من الآخرين الذين قصّوا حكاياتهم الحميمة أمامك.

وكنت أنا ألتقط تسلسل القصة، وأنظر إليك وأشكلك في عقلي وذاكرتي، وأتهيأ لأن تكون حيًا في قصة تخرج فيها مع ذات البنطال الجينز ذي اللون الأزرق التي دخلت قبل قليل إلى محل العباءات القريب من مقهى الكون، منتظرًا صديقي كي يتوقف عن الكلام لأطلب منه أن ينهض، إذ لديّ مشروعي الذي لا يمكن تأجيله.

كنتَ أنت المشروع، وها أنا الآن في انتظار صديقي المدرس الذي قال لي وأنا أكلمه عبر الهاتف بلهجة مستغربة: بعد كل هذه الشهور والأيام تتصل أنت؟ هل أنت مريض؟! عسى ألا تكون كذلك! وكنت أستعيد عافيتي وبهجتي، مُلحًا عليه أن نلتقي كما لم أفعل من قبل، وبأني مشتاق إليه وإلى حكاياته وأحاديثه الشيقة، وشعرت بابتسامته وهو يقول بأنّا سنلتقي حيث شئت أنا.

والغريب أنني نمت البارحة كما لم أنم منذ زمن، وأشعر الآن في هذا الصباح الصيفي هنا عند شاطئ البحر حيث أرتشف كوب الشاي المفضل لديّ بمقهى كوستا الشاطئ، أشعر بالنشوة والحيوية، وأشعر أن ثمة ما هو قادم وجميل، وبأن مشكلتك يا عبد الرحمن

انتهت تقريبًا، وحالما سيجلس صديقي المدرس أمامي سأعيد لك حيويتك التي أراها تحلق فوق سمائك منذ الآن، وأراك بشوشًا مرحًا كما رأيتك في أول مرة التقينا فيها.

ها أنت تدخل، فأراها ترجلت من سيارتها مبتسمة مملوءة بالحياة، يمتد عودها بهيًا مشرقًا وكأن الفراشات اللائي زينَّ أسفل عباءتها المفتوحة طرن بفرح إلى السماء الزرقاء على غير عادة الصيف!

وكنت فتحت دفتري، وبدأت أرسمك.

احتجاج

احتجت الفتاة التي في القصة القصيرة، والتي لم تحمل اسما، ولم يكن الكاتب يعرف من يمكن أن تكون هذه الفتاة؟

احتجت على إقحامها في ما لا يعنيها، مصرة على أنها ليست بطلة ثانوية في سياق نص كتبه هكذا فجأة، كي يقنع القارئ المسكين بأن وجودها ضرورة، وبأن الشخصية التائهة يمكن أن تجد طريقها في حال وجدت الفتاة، في حال أنها أوقفت سيارتها الرياضية ذات الدفع الرباعي وقالت: اركب!

احتجاجها مرده أنها لا تمتلك سيارة فارهة ورياضية وذات دفع رباعي، هذا أولًا، وثانيًا هي ليست من تلك النوعية التي في خيال الكاتب، ليست سيئة بهذا المقدار، كما أن الكاتب لم يكن وضع تصور حياة افتراضية حقيقيًا لها، وإنما استوحاها من خلال خياله المريض، المريض بكل العلل كما تراه، تلك العلل التي تجعله إنسانًا غير سوي ولا أخلاق أو قيم تحكمه

وتحكم تصرفاته وكتاباته! استوحاها من خلال كذبة لفقها صديق له، يدرك الكاتب جيدًا أنه مغامر من ورق!

هي تدرك كم هو ملفق هذا الصديق أيضًا، مثل صاحبه الكاتب، وإلا فلماذا كلما مرت فتاة جميلة من أمامه أخذ يروي قصصًا وبطولات عن نفسه لا صحة لها ولا أساس من الواقع؟

الكاتب ذاته يدرك هذا الأمر، يدرك جيدًا كم يستمتع صديقه هذا بسرد ما هو غير حقيقي، يبالغ فيه وكأنما هو واقعي حدث فعلًا.

إنه يفعل ذلك ليعبر عن نقصه، وعن عجزه الواضح عن الحصول على فتاة جميلة تغطي عيوب زوجته التي تبدد جمالها العادي في الولادات المتكررة وفي الركض وراء أعباء أبنائها الستة الذين لا يفصل بينهم فاصل زمني كبير فيبدون كأنهم توائم متشابهة.

عجزه هذا كان يتضح كلما جاء ليقبل زوجته دون أن يطفئ إنارة الغرفة لتظهر أسنانها المسوسة وتبدو الشعيرات الخفيفة النابتة فوق شفتها العليا كمجسات عنكبوتية.

يغمض عينيه خوفًا من الافتضاح أمام زوجته

متخيلًا فتاة مرت أمامه في الشارع ذلك الصباح، أو زميلة له في العمل تعود أن تتجرأ على ارتداء قميص ملون ومهفهف يلتصق أحيانًا بها فيبدو نهداها كتفاحتين نضرتين حان قطافهما!

من خلال تلك الصورة التي تعبر عينيه المغمضتين يقبل زوجته، لكنه في واقع الأمر ليس أكثر من جبان لا يستطيع سوى رسم تلك التخيلات التعيسة لكل فتاة جميلة ربما يعوض التماعها في خياله صورة زوجته التي ذبلت وأوشكت على أن تجف منها الحياة.

لكن ليس من حق الكاتب أن يجعلها هي تلك الفتاة اللعوب التي تطل في خيال صديقه المريض، فيكتبها في قصة لا يعرف إلى أين تذهب أحداثها، قصة ليس لها أقدام تقودها إلى مكان واضح وآمن، لأن الكاتب لم يكن يعرف أين يمكن أن تبدأ أو تنتهي قصصه.

ليس من حقه أن يختارها هي من بين كل فتيات العالم ليجعلها قطعة ديكور في قصة من قصصه، لا قيمة لها إلا بما يقترحه هو من أحداث، وغالبًا ما تكون هي «تكملة عدد» لا أكثر ولا أقل!

لذلك احتجت، وقررت أن تكتب إليه رسالة

بريدية إلكترونية، مؤنبة إياه، ومتهكمة على كتاباته الضعيفة التي تؤكد فقط أنه كاتب سيىء على كل الصعد.

كانت مغتاظة جدًا، تروح وتجيء في غرفتها والنوم جافاها هذا المساء، جافاها لأنها ترى أنها انتهكت، وبأن أحدهم قام باستغفالها، بسرقة شيء ما من حياتها، بل بالنصب عليها والاحتيال.

ـ كل الكتاب محتالون، لا أمان لهم.

قالت لنفسها وهي تتوقف أمام المنضدة التي يتربع فوقها جهازها اللابتوب، نظرت إلى شاشته، وكانت اتخذت قرارها بأن ترسل رسالتها إليه، عارفة ما ستقول فيها:

اسمع أيها الكاتب، يبدو أنك أخطأت في انتقاء بطلتك، في انتقاء شخصياتك التي تكتبها، لأنك هذه المرة تجنيت عليّ، ولفقت عني قصة ليست حقيقية، وهذا بطبيعة الحال هو طبع الكذابين أمثالكم أنتم الكتاب، الذين لا يجيدون عملًا غير الكذب والادعاء على الناس وتصويرهم بصور لا ترقى إلى الواقع فما بالك أنها ترقى إلى حقيقة هؤلاء الناس.

إنك أسأت، وأنت تعرف جيدًا أيها المعتوه ما جزاء الإساءة!

من قال لك إنني أمتلك سيارة رياضية؟ من أوحى لك بفكرة أنني فتاة خارجة عن أي عرف؟ وبأنني لعوب كما قلت؟ من أخبرك بأنني عابثة، وبأنني أُقِلُّ أحدهم لا أعرفه هكذا من الشارع فقط لتصورني على أنني فتاة سيئة؟

وبرغم أنك لم تبعد عن الحقيقة كثيرًا فيما يتعلق بعملي؛ إلا أنني فتاة محترمة، ووالدي رجل سمعته مثل الذهب لا يتطرق إليها الشك، وهو بخلافك ليس مدعيًا وكاذبًا وملفقًا، إنه رجل محب للناس، ومحبته هذه شملتني وأخوتي كافة، ولم يجبرني على شيء لم أرغب فيه قط، كما أنه منفتح الذهن متسامح لا يفعل ما يفعل الآخرون الذين لا يتدخل في حياتهم، ولا يملي على أحد أفكاره مع أنه يقول آراءه دون أي تحفظات.

ذلك هو أبي،

أما أنا فإنني لم أرتكب حماقات كما أوحت قصصك، وليس لي صديقات سيئات السمعة، ووصلت إلى منصبي الوظيفي بجهدي واجتهادي لا بجمالي وجسدي.

مثلك لا فائدة منه في المجتمع، أما أنا فإني أترأس فريق عمل يصل النهار بالليل كي يجد الحلول العلمية السلمية من أجل القضاء على ما

يهدد المياه الجوفية من أخطار ليس أقلها بقايانا نحن البشر، وأظن أننا اليوم بحاجة كبيرة إلى تشكيل فريق علمي مختص بالتخلص من سموم أمثالك من البشر!

إنكم أنتم الكتاب وأمثالكم من الرجال تمتلكون عقولًا مريضة، لا ترى في المرأة غير جسد وحسب، وهذا الأمر لا ينطبق على صديقك ذي البطولات الزائفة فحسب، بل عليك وعلى آخرين من شاكلتك.

صديقك الذي كلما مرت بجواره فتاة جميلة استفاق خياله العليل فطفق يرسم صورًا بائسة، وهو يتخيلهن وعباءاتهن سقطت فانكشفت عورتهن، وفي المقابل لا يرتضي مطلقًا أن تخرج زوجته خارج البيت إلا برفقته، وكلما خرجت كانت كتلة سواد! وكم هو مسكين ليظن أن عباءة سوداء ونقابًا يمكن لهما تأمين زوجته، وعدم انكشافها على غيره، وكم هم كثر!

أنت تدرك جيدًا كم هو خائب صاحبك ذاك، وكم أنت فاشل بمقدار خيبته، وإلا فلماذا يكسد كتابك في الأسواق؟ لماذا لا تجد أحدًا يقرأ كتبك الفاسدة؟ هل تعلم لماذا هي فاسدة كبيض؟ لأنك لم تكن مخلصًا في الكتابة، لأنك كنت تنجر وراء رغبات واشتهاءات دونية، ولولا

ذلك لكنت كتبت عن الواقع لا أن تزيفه...

وتوقفت قليلًا كأنما تفكر في كلمة أخرى تضيفها، أو بالأحرى كلمة ذات وقع قوي وصدى أكبر، لكنها على ما يبدو وجدت أنها قالت كل شيء، فختمت رسالتها:

لا أجد أكثر من هذا الكلام كي أقوله لك أيها الكاتب المراوغ والمزيف في آن، ولا أقول إلا حسبي الله ونعم الوكيل في أمثالك من المرضى الذين لا يجدون أي علاج فيصبحون آفة على المجتمع.

ابتسمت وهي تقرأ آخر جملة كتبتها، معجبة بها، ومتخيلة وقعها على نفسية هذا الكاتب، عندما يقرأ بأنه آفة على المجتمع!

مررت عينيها على الرسالة بشكل سريع، ثم وضعت بريده الإلكتروني وضغطت على زر الإرسال، مطت ظهرها قليلًا إلى الأمام، وتنهدت فرحة بما قامت به، متأكدة أن الكاتب ستنتابه نوبة غضب هائلة وهو يقرأ رسالته، وستفجر في داخله نيرانًا لا تهدأ ولا تستكين، وهذا هو الأمر المهم.

قامت وتحركت تجاه سريرها، وارتمت عليه

لتتطلع إلى سقف الغرفة والمروحة التي تدور ببطء وتؤدة.

كانت تكتب في خيالها ما سيحدث للكاتب عندما يفاجأ بفتاة تشتمه لأنه لا يجيد كتابة القصص، لأنه أقحمها في قصة رأت أنها قصة ليست ناضجة كفاية، وبأن الفتاة التي فيها مقحمة وبلا أي داع مطلقًا.

تبتسم وهي ترسم ذلك الخيال في سقف غرفتها، الذي عادة ما كانت ترسم فيه صورة الفتى الذي تعرفت إليه أخيرًا وهو يكلمها عبر الهاتف ويقول لها: أنا الآن لا أرتدي أي ملابس.

فجأة فتحت عينها بشدة وهي تسأل نفسها: كيف جاء الفتى في هذه اللحظة إليّ؟ عقدت حاجبيها، وفكرت: أيعقل أن الكاتب يكتبها الآن في قصة أخرى؟ الكاتب، الكاتب، الـ... رددت الكلمة عدة مرات وهي تستعيد الرسالة التي أرسلتها قبل قليل.

لقد شتمته، أهانته بالمعنى القانوني، وهنا منبع الخطر! فالرسالة ما هي الآن إلا إدانة واضحة المعالم لها بأنها ارتكبت جريمة لا تغتفر، لابد أن الكاتب لن ينتبه إلى هذا الأمر، ولابد أن ثورة غضبه ستعميه عن

فكرة الإهانة بمعناها القانوني، ولن يقوم بأي حركة جنونية تتمثل في توجيه اتهام إليها.

لا يمكن أن تذهب إلى مركز الشرطة، فكيف بها تذهب إلى محكمة؟ إلى الحبس؟ لا ، لا ، لا ، الكتاب لا يفعلونها، إذ لم يحدث أن قام كاتب بتوجيه اتهام إلى قارئ بتهمة الشتم!

ثم لو حدث هذا فإنها ستحول الاتهام إليه كونه كتب عنها، وهذه جريمة يعاقب القانون عليها، لا لأنه كتب فعليًا، بل لأنه لفق لها ما ليس فيها.

ماذا لو كان يعلم بأمر الفتى؟ ساعتئذ ماذا سيكون موقفها؟ هل تقول بأنها بريئة تمامًا؟ وبأنها لم تفعل شيئًا؟ على الأقل محادثة هاتفية مع شاب تعرفت إليه عبر الفيس بوك ومارست معه عبر الهاتف فعلًا خادشًا للحياء؟

لكنها تدرك أنها كانت في أولى ليالي التعارف تستلقي على سريرها دون أن يغطيها شيء ودون أن تكون قطعة واحدة من الملابس عليها مستمتعة بالحديث الجنسي الذي كان يتم مع فتاها!

ثم إنها أيضًا خرجت معه، خرجت مرتين،

وقامت بأفعال سيتحفظ الكاتب عن ذكرها أمام المحكمة إلا إذا أصرت على النكران!

ـ تبًا لك أيها المريض!

قالت وهي تعض على أسنانها من الغيظ، ثم عادت إلى جهاز اللابتوب وفتحت بريدها متأملة أن تكون رسالتها فشلت في الذهاب.

ذلك لم يحدث، وعليها الآن أن تنتظر ردة فعله، عليها أن تعيش هذا الجو القلق، أن ترسم في خيالها عدة سيناريوهات لما يمكن أن يحدث عندما يقرأ رسالتها.

وكانت فكرة واحدة تصيبها بارتجاف كلما طرأت ضمن تلك السيناريوهات، وهي ماذا ستقول لأبيها الطيب المسالم المتسامح الذي رباها على الصراحة وعلى الحرية ولم يبخل عليها بشيء من الاحترام قبل الحنان؟

هل تقول له سامحني؟ وهل تكفي كلمة سامحني كي تعبر عن الصدمة التي ستتولد لديه وهو الذي كان يتفاخر بها في كل محفل دون أن يثير ذلك في أعماقه أي حزن لأنه لم ينجب إلا بنتًا واحدة فقط؟

ـ تبًا لك أيها الكاتب الزائف!

رددت مجددًا وهي تجيء وتروح في أرجاء الغرفة مرتعبة من فكرة الانكشاف أمام أبيها، مرتعبة من الفضيحة التي ستجرها رسالة بريدية.

عادت لتنظر إلى شاشة اللابتوب، متمنية أن يحدث ما يلغي كل هذا القلق الذي انتابها جراء فكرة أن يتنبه الكاتب إلى رسالتها الشتيمة.

لو أنها قرأت قصته كأي قارئة واكتفت بذلك، ألن يكون ذلك أفضل بكثير من هذا القلق الذي يبدو أنها تعيشه هذا المساء؟

عادت مجددًا تنظر إلى جهازها، وقررت أن تكتب إليه رسالة اعتذار، تقول فيها بأنها أخطأت وما كان ينبغي لها أن ترسل تلك الرسالة سيئة الذكر! لكنه الغضب والانفعال ما جرها لكتابة رسالة شديدة اللهجة! سترجوه أن ينسى الرسالة ويمسحها من بريده وأن يواصل مشواره في الكتابة دون أن يفكر في أنه يكتب عنها مجددًا.

أخذت تفكر مطولًا في صيغة الاعتذار، وكيف يمكن أن تجعله يطفئ نار الغضب التي اشتعلت جراء

شتيمتها التي كانت في رسالتها؛ عندما جاءتها رسالة الرد تقول:

شكرًا جزيلًا لرسالتك، وتأكدي أن كل شيء كان يمشي وفق مخطط أعد سلفًا، ومهما كان غضبك فإني أقدره حق قدره، وهو أمر كان محسوبًا سلفًا، لذا لا تظني أن رسالتك أغضبتني، بل على العكس من ذلك تمامًا سعدت بها وكنت أنتظرها منذ وقت بعدما أنهيت كتابة قصتي التي أغضبتك.

أعرف أنك تستغربين هذه النبرة المهادنة بل المبتهجة في واقع الأمر، ولكن لا تفكري كثيرًا، إذ إن كثيرًا من الأمور في حياتنا لا تفسير لها، ومهما حاولت إيجاد تفسير لها فإنك لن تحصلي عليه! لذا فليرتح بالك وليهدأ قلقك، ولتتنفسي الصعداء فلن يحدث لك أي مكروه، ولن تجدي نفسك في قاعة محكمة أيًا كانت، ولن يعرف والدك عن أسرارك الصغيرة والمبهجة، على الأقل لن أقوم أنا بأي شيء يجعلك عرضة للانتهاك أمام والدك.

وفي الختام أتمنى لك ليلة سعيدة مع المكالمة التي ستأتيك بعد قليل

دمت بود

فتحت عينيها على آخرهما وهي تقرأ آخر سطر في رسالته، ومع أنها تنهدت الصعداء لكنها لم تكن قادرة على استيعاب أن تكون هي بطلة لقصة جديدة يكتبها الكاتب، وهذه المرة دون أن تشعر بأنها قطعة ديكور لا لزوم لها!

في واقع الأمر رأيتها تبتسم وهي تصل إلى تلك الحقيقة التي لم تنتبه إليها منذ السطر الأول لهذه القصة، ثم قامت وقررت أن تغلق هاتفها على غير توقعي، ثم ترتمي على سريرها وتغمض عينيها بابتسام، وتنام!

عندما يفتح الكيس

جروني إلى غرفة ضيقة، ولم ينزعوا عني الكيس الأسود الذي وضعوه على رأسي منذ القسم الخاص وإلى هنا حيث لا شيء يبشر بأني خارج في القريب العاجل، فقدت كل أمل في أن ينتهي هذا السواد الذي بدأت أعيشه، منذ اللحظة التي اتصلوا فيها عبر هاتفي وقالوا: تعال، نريدك في دردشة قصيرة!

لم أذنب في أمر سوى أنني أكتب، أبتكر شخوصًا وحكايات وأكتب، أعبر عن رأيي الذي كفله لي القانون، ذلك الرأي الذي لا أظن أنه مؤذٍ أو مخيف.

وكم كنت غبيًا عندما فكرت بمثالية طوباوية، لا أحد اليوم يفكر مثلي في أن القانون يمكنه أن يكون الحامي والضامن وحبل النجاة، لا أحد سواي يريد الخير لهذه البلاد الموشكة على السقوط في هوة عميقة بلا قرار، وحدي أبصر النهاية المأسوية التي ستحل بنا يا حبيبتي، هذه النهاية التي أخشى أن تسقطي فيها

كالآخرين، ككل من لا يفكر ولا يحاول أن يفكر ويتدبر كي يكون كائنًا صالحًا يساهم في الحياة بشكل إيجابي! إنهم لا يفكرون إلا في أنفسهم، وهذه هي الطامة!

آآآه من هذا العذاب الذي أعيشه الآن، كم هو موجع ومؤلم حد النخاع!

كل ما أردته هو أن أكتب وأن أعيش في سذاجة حلمي الذي طالما حكيتُ لك عنه، وكنت أنصت لك وأنت تخبرينني عن تفاصيل حياتك المرهقة والمتعبة وكم أن هذه الحياة قاسية للدرجة التي جعلتك تستدينين فيها من أجل أن يضمن والدك نصيبه منك قبل أن يأتي الزوج فيأخذك ويأخذ البيضة التي تبيض الذهب كما كنت تقولين! لذلك لم تفكري في الزواج، واخترت طريقًا صعبًا خصوصًا بعد وفاة أمك، وانتهاء كل المسؤوليات إليك، مسؤولية منزل كبير بالأرواح التي فيه، رغم أنه منزل يتكون من ثلاث غرف وصالة ويحتل مساحة لا تتجاوز الثلاثمائة متر مربع تسكنونه بالإيجار، وبت تدفعين هذا الإيجار وحدك الآن، أما أبوك فأراد أن يعود إلى سن الشباب، تزوج امرأة مقاربة لعمرك، واشترى لها بيتًا مستقلًا ومحل تجميل، لا لكي تعمل

فيه، بل لكي يكون نقطة التقاء العشاق والمحرومين والفاسدين.

كنت أريد أن أكتب عن الفاسدين، هؤلاء الذين لم يتركوا شيئًا جميلًا إلا وأفسدوه، هؤلاء الذين أنا الآن هنا بسببهم، في هذا القن الملوث بالروائح الفاسدة والأغنيات الساذجة ورأسي مدفون في كيس أسود كي لا أرى مدى السوء الذي يعاملون به كل حر فأكتب يومًا عنه.

لكني أكتب الآن في رأسي هذه الرسالة المطولة إليك، وأدرك أنهم لابد سيخلعون الكيس كي أرى وجوههم الشامتة والبشعة في آن، أكتب إليك وأنت الضوء الوحيد الذي يشع في حياتي المبعثرة منذ بدء هذه الأحداث، وجهك طوق نجاتي يا حبي الوحيد، أستمد منه طاقة هائلة كي أشمت بابتسامة عريضة في وجوههم القميئة.

لم يطل الأمر كثيرًا حتى فُتح الباب الثقيل وجاء أحدهم وانتزعني من الأرض الباردة وجرني إلى مكان لا أعرفه، تبين لاحقًا أنه مكتب التحقيق، هناك نزعوا الكيس لأفتح عيني على أربعة جدران كالحة.

كانوا أجلسوني على كرسي كتلك الكراسي التي

عادة ما نشاهدها في مشاهد التحقيق، لكنه كان كرسيًا معوجًا غير ثابت، وصغيرًا لا يتسع لي، وعلى ما يبدو أنه، بكل ما فيه من سوء، كان واحدًا من أدواتهم المتعددة للنيل ممن يأتي إليهم في ذلك المكان المفصول عن العالم.

لم أكن أبالي، كنت أفكر فيك أنت فقط، ولم يعد يعنيني هذا العالم الذي بات قريبًا من هاويته، كنت أفكر في آخر لقاء جمعني وإياك قبل أن تحدث كل هذه الأحداث: كان يومًا صحوًا قررت فيه أن أنسى شخوصي الروائية قليلًا ومشروعي، وأنطلق إليك وأراك مهما كنت مشغولة في عملك، مهما كان ضحايا الطرق كثرًا في ذلك الصباح، ومهما بدا الطريق إلى مستشفى خولة طويلًا ومزعجًا كعادته، لكن المهم أن ألتقيك.

اتصلتُ بك وتأخرتِ في الرد بحجةِ حادثِ الدهس الذي وصلتكم ضحيته فأدخلتموه إلى غرفة العمليات فورًا، وقلتُ لك لا يهمني أي شيء من ذلك، ما يهمني هو أن أراك!

كنت سعيدًا في ذلك الصباح منهيًا الفصل الأخير من روايتي الجديدة، وكنت أريد أن أحتفل بطريقتي، وأنت كنت طريقتي!

أعرف أنك تحبينني ولذلك كنت ستوافقين على أن تتركي عملك لنلتقي في عش الحب الذي صنعناه مذ عدة أعوام والذي لم يكن يبعد كثيرًا عن مستشفى خولة.

هناك في شقق منام التقينا لأول مرة قبل عامين، هناك نقشتِ على روحي أجمل العبارات، وأفرغتُ فيك كلَّ الحب الذي هربته في رواياتي وقصصي، هناك ابتكرت عوالم جديدة في حياتي، وتعرفت إلى مسارات لم أكن أعرفها من قبل، هل تتذكرين كل ذلك؟ هل تتذكرين لذة اللقاء الأول؟ القبلة الأولى، الأنفاس الحارة، والعناق الذي صهر روحينا في روح واحدة؟

كنت محتاجًا إلى تلك اللحظات، وكنتُ في قمة الانتشاء وأنا أتذكر التفاصيل الصغيرة التي طبعناها في فضاء الشقة التي لطالما كنا نحجزها لموعدنا العشقي الأخاذ.

وها أنا الآن أستعيض بالحلم الوهمي كي أتخلص من برودة هذا المكان الموحش، ومن نظرات التعالي والحقد التي كنت أراها في وجه كل واحد دخل يطرح أسئلته البغيضة علي، تلك الأسئلة التي لا منطق لها سوى الغباوة فحسب، ولكنني سأخرج كي أفضح

عتمة الليالي والأيام التي أسكنوني فيها ولم يكن لي من ذنب سوى وقوفي مطالبًا بالعدل فقط، لا أكثر ولا أقل...

أقل ما يمكن أن يقال عن نصه الجديد بأنه تحفة! مع أنه لم يكمله حتى الآن وربما لن يكمله، لكنه كان يحدث نفسه بأنه في نهاية الكتابة لن يكون أقل من تحفة!

كان يبتسم متراجعا إلى الخلف وأخذ يفرقع أصابعه، وثمة شعور بأنه سيحصل على التفوق من وراء هذا النص الجديد والخلاب الذي حالما ينشر سيضعه في مصاف كتاب كبار لطالما سخروا منه ونبذوه، ولن يكون ساعتئذ وهو يوقع نسخة من عمله هذا، كاتبًا صاحب موهبة رديئة وضعيفة، بل سيكون الأبرز لأنه يناقش موضوعًا لم يناقشه أحد بمثل ما ناقشه هو من جرأة وقوة وتعدد مستويات.

كان مأخوذًا بهذه الفكرة، فكرة تصدره للمشهد الثقافي إبان معرض مسقط الدولي للكتاب، وكم سيكون أكثر سعادة لو وصله خبر بمنع ومصادرة كتابه، فذلك الأمر يعطيه قوة أكبر، وحضورًا أكثر!

صحيح أنه لم يعش التجربة كما عاشها كتاب

آخرون لم يتجرأوا بعد على الكتابة عنها، وصحيح أنه في آخر تظاهرة انسحب قبل الاعتقالات بخمس دقائق عندما أرسل إليه ابن عمه في المهام الخاصة أنهم قادمون إليهم ليتم اعتقالهم جميعًا، ولكنه سيكون الأفضل والأكثر حضورًا وستتهاطل عليه المعجبات من كل حدب وصوب وسيعيش التجربة التي كتب عنها في نصه كاملة غير مجزأة أو مشوشة.

ما لا يعرفه هو أنه لم يكن أكثر من شخصية ابتكرتها أنا، وكان قدري أن تحدث لي قصة خارج نطاق قصته التي بدأ هو في كتابتها، لكنها متعلقة به هو، ولذلك لا تستغربوا لماذا أسرد أنا هذا الحدث في هذه اللحظة!

سأخبركم بما حدث فلا تستعجلوا، وقبل أن نصل إلى ما حدث فعليًا علي أن أخبركم بأن هذه الشخصية وهي في قمة انتشائها بما كتبت؛ خرجت في ذلك المساء البارد الذي شهد أمطارًا غزيرة على غير عادة مسقط في السنوات الأخيرة، وكان ذاهبًا للقاء امرأة تعرف إليها قبل أشهر في مركز لولو الغبرة، يوم كان ذاهبًا لشراء هاتف جديد من هناك.

صودف أن سقطت ورقة كانت بمحفظته وهو

يخرج المبلغ فانحنى إلى الأرض كي يتناولها، وفي اللحظة التي كان ينهض فيها اصطدم بهذه المرأة العابرة التي لم تكن تريد شراء شيء وإنما كانت تتفرج فقط على المعروضات.

لم يكن الاصطدام قويًا ولكنه كان كافيًا لابتسامة تفتح له بابها عندما نطق يعتذر إليها وهي تبتسم قائلة: حصل خير، والخير جاءه في نظرة عينيها وفي تورد وجهها الذي لم يكن جميلًا ذلك الجمال الساحر، وفوق هذا كان ينبئ عن عمرها المقارب نهاية الثلاثين، لذلك بادر أن يعطيها بطاقة «البيزنس كارد» قائلًا لها بأنه على أتم استعداد لتعويض نظارتها الشمسية التي تهيأ له أنها وقعت فانكسرت، وما كانت سوى حجة ضعيفة ليعطيها رقم هاتفه.

لم يطل الوقت، فمساء ذلك اليوم اتصلت به ليأتيه صوتها الرقيق ويفتح بابًا آخر معها، والمدهش أن تلك المكالمة انتهت باتفاق على لقاء نهاية الأسبوع.

قالت له: أنا أحب الأماكن البعيدة، شو رايك نلتقي في فندق مرحبًا في العامرات؟

لقد سهلت عليه جهد المسافات، إذ إنه يسكن العامرات، المدينة ذاتها التي أسكنها، والفندق الوحيد

هناك شهد عدة مغامرات مع نساء كثيرات وهذه هي آخرهن.

كان أوقف سيارته ليس أمام مدخل الفندق مباشرة بل خلفه قريبًا من محطة البنزين القريبة لأنه كان يؤمن بضرورة إبقاء عالمه هذا خفيًا عن الناس، مصداقًا للمقولة التي كثيرًا ما يتمثلها «وإن ابتليتم فاستتروا»

نظر نظرة سريعة إلى وجهه في المرآة، وتفقد أناقته ثم رش قليلًا من العطر الخاص الذي يضعه دائمًا في سيارته لمثل مهمات كهذه، وترجل من السيارة وخطا عدة خطوات قبل أن يتوقف ويقفل راجعًا متذكرًا الهدية التي نسيها في المقعد الخلفي، ولولا ذلك النسيان لربما ما كان سيحدث ما حدث، وما كنت التقيت إحدى شخصياتي في مكان لم يكن مقدرًا أن نلتقي فيه.

كنت في اليوم ذاته أخذت إجازة من أجل إصلاح بعض ما ترتب جراء موجة الأمطار التي اجتاحت مسقط كلها، وكنت حينئذ فقط أدفع خمسة ريالات للهندي العامل في محطة البنزين، وكان عليّ أن أمر على محل تصليح وتركيب اللواقط الفضائية المجاور لفندق مرحبا من جهة الشارع العام، عندما أمسكتُ هاتفي لأقرأ

الرسالة البنكية التي وصلتني تخبرني بأن رصيدي البنكي هو أقل من ريال واحد فقط.

في هذه اللحظة التي كنت أطالع فيها الرسالة وكأني أتمنى أن تقول لي عكس ما هو مكتوب، كان هو عاود إغلاق سيارته وخطا خطواته الفرحة ولم ير سيارةً هي سيارتي تمشي كتائه في الصحراء، تقترب منه ليحدث ما هو مقدر ومكتوب على الجبين.

لم يفد انتباهي المتأخر، ولا دعستي على الفرامل بشدة، تطاير في الهواء كريشة ناعمة، ثم سقط على الأرض الصلبة، وتوقفت أنا مجبرًا لأنزل وأرى ما حدث، وكم تمنيت لو أنه واحد من الكلاب الكثيرة التي لطالما صادفتها في الشوارع وكان مقدرًا لي أن أصدمها، لكنه كان كائنًا بشريًا للأسف الشديد، يئن بخفوت عجيب، يئن ويزفر وثمة دم تناثر حوله.

لم أستوعب لوهلة ما حدث، وقفت مبهوتًا أرى إنسانًا له كثير من تفاصيلي يتلوى أمامي، ومع يقيني أنه شخصيتي التي كتبتها في قصصي؛ لكنه في تلك اللحظة كان شيئًا واقعيًا جدًا، وغير قابل للشك، خصوصًا عندما لم تمض دقيقة واحدة وكان جمهرة من الناس تحلقت حوله.

كنت مصابًا بصدمة، وكأنني من ألقت به السيارة هناك، ولذلك لم أتحرك، حتى رأيت امرأة تترجل من سيارتها وتتقدم إليه بكل ثقة طالبة من الجميع ممن تحلق هناك أن يفسحوا لها في المجال، كانت واثقة بنفسها وبرغم أنني أوشكت أن أمنعها من الاقتراب منه؛ إلا أنها قالت: أنا ممرضة بمستشفى خولة، أُطلبْ الاسعاف بسرعة.

كنت فعليًا اتصلت وطلبت الشرطة والإسعاف، وأكدت لهم بأني من ارتكب الحادث، أما هي فكانت طلبت من الفتاة التي برفقتها أن تحضر عدة الإسعاف من سيارتها.

أخذت تتفقد جسده فيما هو يواصل أنينه الخافت، ثم طلبت من الفتاة التي برفقتها أن تساعدها، بعدها أخذت تنظف بعض الجروح النازفة وتضمدها، أما أنا فكنت أعاود الاتصال مجددًا بالطوارئ صارخًا فيهم بأن يسرعوا في مجيئهم.

كنت أردد في داخلي وأنا أرى تلك الشخصية الملقاة على الأرض، التي تئن ذلك الأنين الخافت والموجع، بأن الأمر لا يعدو أن يكون قصة بائسة كتبتها، أو حلمًا سيئًا راودني في المنام وما أنا الآن إلا

واحد نائم على سريره في ليلة ماطرة، أواصل حلمي سيىء الذكر.

لكنه على الإطلاق لم يكن حلمًا أحلمه حينذاك...

حينذاك لم يكن أمامي سوى أن أبدد أحلامي العريضة التي كنت أرسمها في عقلي، فما فعله هذا المأفون هو تبديد كل حلم ممكن! هو لم يبددها فحسب، بل قتلها كأي مجرم نذل!

من يحسب نفسه هذا الكاتب كي يسلبني من أحببت بجرة قلم؟ من يحسب نفسه عندما يأتي بكل وقاحة ويسأل عن ضحيته ويقول أنا من صدمه قبل ساعات؟ يقولها وثمة فرح داخلي أكاد أراه، ثم يأخذ في تأملي عاقدًا حاجبيه لكأنما أدرك أنني هي فتاة شخصيته الممرضة المسكينة التي عليها الآن أن ترى أحلامها تذوي وتنهار.

هل يفرح أحد بجريمته؟ إنه هذا المدعو كاتبًا، الذي رأيته بأم عينيّ، رأيت فرحًا كبيرًا في عينيه، وكأنما أرواح الناس لعبة في أيادي أمثاله من المجانين والمرضى الفصاميين.

كان بودي أن أقول له كلامًا ثقيلًا، أن أهدر

بصوت عال بسيل من الشتائم، أن أوبخه على فعلته الهوجاء، ولكنني اكتفيت أن أدله على غرفة العناية المركزة، حيث يرقد من أحب، الذي عندما دخلوا به المستشفى ورأيته حتى فجعت ولم أقو على الحركة، تباطأت وأنا أرى زميلاتي وزملائي مع الأطباء يجرونه فوق ذلك السرير إلى غرفة العمليات.

لم أستطع فعل شيء، حتى البكاء لم أبك، جمدت فقط، ورأيت لوني يخرج من جسدي حتى بدوت شاحبة بقلب متسارع في النبض. استأذنت قليلًا إلى دورة المياه، وهناك انفجرت باكية.

كان موعدي معه بعد أقل من ساعة، هناك حيث تعودنا أن نلتقي، حيث ألقي بكل أثقال حياتي عليه، أجعله يشاركني لأتحرر على يديه وأطير بروحي إلى الفضاء. أحلق في السماء وأنا بين يديه، أحلق متناسية كل آثام الحياة ضدي، ومع كل قبلة كان يزرعها في جسدي كنت أتطهر وأتحرر أكثر فأكثر وأطير في الأعالي. لم يكن يبقي فيّ مكانًا إلا زرع فيه وروده وأرواه بذلك السيل الجارف من الحب غير المتناهي، وكنت أتأوه وأضحك بغنج فيردد بأن ضحكتي تمحو سيئات هذه البلاد كلها، وبأنه كلما ضحكت تلك

الضحكة؛ أهديت إليه قدرة على المقاومة! ولا أعرف ماذا يعني بالمقاومة، ومقاومة من؟ كل ما أعرفه أنني كنت أطير، أطير وأغتسل بالحب وأنسى.

ومع أنني كنت متيقنة بأن يومًا سيأتي وينتهي فيه كل هذا، لكنني كنت أحب أن أعيش في وهمي، وأن لا أخرج منه. هذا اليوم جاء، قرره هذا الكاتب اللعين الذي لم يختر أحدًا كي يلقي بالتعاسة عليه سواي، فتعسًا لك أيها الكاتب على كل ما فعلت بي وبه...

لم أفعل شيئًا تجاه تلك النظرة التي كانت ترمقني بها، انسحبت من هناك فقط، واضعًا رقم هاتفي متيقنًا بأنها ستلتفت إليه لاحقًا وستتصل وسنلتقي في نهاية الأسبوع.

هنَّ يفعلن ما هو أشد من تلك النظرة، لكن ذلك لا يعني سوى أنني في الطريق السليم، وبأنها ستتجاوب نهاية المطاف، وما يهمني الآن أن أبهرها بما سأقوله لها من أنها ستكون بطلة في إحدى قصصي، وبأني أوشك على الانتهاء من قصة جديدة ستذهلها بكل تأكيد حالما تقرأها، وستتشجع أكثر حينذاك بأن تكون بطلة متوجة في نص من نصوصي.

أما الآن فعليّ أن أعود إلى تتمة ما بدأت،

وأنصت إلى سيل الأسئلة التي سيلقي بها المحققون عليّ في ذلك المكان البائس دون أن يعلموا حقيقة أنهم مجرد شخوص هامشية أحضرتها لضرورة فنية في هذا النص الذي سينتهي بالمجد الذي أريد!...

صدر للكاتب
عن مؤسسة الانتشار العربي

- 2005: **مجرد خيال عابر**، قصص قصيرة
- 2006: **جثة وباب وزلزال**، نصوص في المسرح
- 2009: **بروفة لاثنين**، نصوص في المسرح
- 2009: **تنهشه الفئران**، قصص قصيرة

كما صدر له أيضًا:

وزارة التراث والثقافة بمسقط:

- 2006: **لا يجب أن تبدو كرواية**، قصص.
- 2007: **دوران في منطقة الصفر**، نصوص في المسرح.

دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة:

- 2008: **ما تبقى من رثاء خولة**، مسرح.

الهيئة العربية للمسرح:

- 2010: **ما حدث بعد ذلك**، النص الفائز بالمركز الأول في الدورة الثانية لمسابقة الهيئة العربية للمسرح في التأليف المسرحي للكبار.

مؤسسة بيت الغشام للنشر والترجمة:

- 2013: **علبة مسامير**، مقالات
- 2013: **ما حدث بعد ذلك**، نص مسرحي

للتواصل مع الكاتب:

hilalb1978@gmail.com

@hilalalbadi/ twitter

كنت أريد أن أكتب عن الفاسدين، هؤلاء الذين لم يتركوا شيئا جميلا إلا وأفسدوه، هؤلاء الذين أنا الآن هنا بسببهم، في هذا القن الملوث بالروائح الفاسدة والأغنيات الساذجة ورأسي مدفون في كيس أسود كي لا أرى مدى السوء الذي يعاملون به كل حر فأكتب يوما عنه.

لكني أكتب الآن في رأسي هذي الرسالة المطولة إليك، وأدرك أنهم لابد سيخلعون الكيس كي أرى وجوههم الشامتة والبشعة في آن، أكتب إليك وأنت الضوء الوحيد الذي يشع في حياتي المبعثرة منذ بدء هذي الأحداث، وجهك طوق نجاتي يا حبي الوحيد، أستمد منه طاقة هائلة كي أشمت بابتسامة عريضة في وجوههم القميئة.



ISBN 978-614-404-531-2

